library4arab.com

library4arab.com

في مغيب القمر

library4arab.com

library4arab.com

نشر بالاشتراك

مع

مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر

في مغيب القمر

تأليف

چون شتاينبك

ترجمة

ثروت أباظة و عبد الله البشير

ملتزمة الطبع والنشر
مكتبة النهضة المصرية
لأصحابها حسن ويوسف محمد وأخوتهما
٩ شارع عدلي باشا بالقاهرة

١٩٥٦

هذه الترجمة مرخص بها ، وقد قامت مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر بشراء حق الترجمة من صاحب هذا الحق .

This is an authorized translation of "The Moon is Down" by John Steinbeck. Copyright, 1942, by John Steinbeck. Published by The Viking Press, New York, U.S.A.

المشتركون فى هذا الكتاب

جون شتاينبك : مؤلف القصة من أكبر كتاب أمريكا المعاصرين (اقرأ المقدمة) .

الأستاذ ثروت أباظة : أحد مترجمى الكتاب : محام وأديب معروف ألف عدة كتب منها كتاب « ابن عمار » و « الحياة لنا » وعرف بمقالاته الأدبية العديدة فى المجلات والصحف وبتمثيلياته الاذاعية .

بدأ حياته الأدبية فى ١٩٤٤ مع أنه من مواليد ١٩٢٧ ، ومارس سائر فنون الأدب فبنى له اسماً فى الأوساط الأدبية وعرفه قراء مخلصون له وليس ذلك بغريب فهو سبط أسرة عرفت فى عالم الأدب .

الأستاذ عبد الله البشير : أحد مترجمى الكتاب : درس الأدب الإنجليزى فى جامعة القاهرة ثم فى جامعة اكستر بانجلترا وكانت رسالته فى مسرحيات ت . س . اليوت ، وهو الآن وكيل مكتب البعثات بلندن ، وقد اشترك مع الشاعر الكبير عزيز أباظة فى تأليف مسرحية شهريار ، كما ترجم مسرحيات عديدة ، وله تلاميذ يعترفون بفضله على صغر سنه فهو من مواليد ١٩٢٤ .

الأستاذ حسين بيكار : مصمم الغلاف — أستاذ بكلية الفنون الجميلة ، ومن أشهر الرسامين المصريين .

library4arab.com

مقدمة

من أهم وظائف الناقد أن يفسر مدى ارتباط العمل الأدبى بالمجتمع الذى نبع منه الأدب وارتباط هذا العمل بنفس القارىء ، وعلى الناقد بعد هذا أن يقارن بين مختلف التجارب الأدبية كى يبلور ألوانها الرفيعة ومعانيها الغنية التى تتعمق جذورها المجتمع الذى نبت فيه القارىء .

واذا أخذنا بهذا الرأى فى تقديمنا لهذه القصة وجدنا لزاما علينا أن نعرض لكاتبها فى اطار المجتمع الذى يعيش فيه وأن نرده الى مدرسة أدبية بعينها ثم نجرد هذه القصة من خصائصها المحلية وأحداثها التى ترتبط بظروف خاصة كى نستخلص منها حقائق انسانية عامة تصلح لكل عصر ولكل مكان .

جون شتاينبك وروح العصر :

ينتمى جون شتاينبك الى مدرسة ذات أثر واسع فى تطور الأدب الأمريكى المعاصر وهذه المدرسة تشغل بسؤال جوهرى وتحاول الرد عليه : « ما هو الانسان ؟ » أو « ما هو

موقف الانسان من القوى التى تحيط به ؟ وقد انقسم أنصار المدرسة الى شعب ثلاث ازاء سؤالهم هذا .

فبعضهم يهتم بمصير الانسان بمعناه المطلق . والفلاسفة منهم يشتغلون بالقيم الفلسفية المثالية أو المسيحية التقليدية ويتخذونها أساسا لتفهم مكانة الانسان فى هذا الكون ومن بين هؤلاء يمكننا أن نذكر پول المرمور Paul Elmer More وثورتون وايلدر Thornton Wilder . وهناك فريق آخر من الكتاب يحاول أن يصل الى كنه الانسان بالوصول الى دخيلة روحه الخفية ومن هؤلاء شيروود اندرسن Sherwood Anderson ووليام فولكنر William Folkner والفريق الثالث يحاول أن يربط بين الواقعية الدقيقة والتعبير الالهامى عن معنى الحياة أو الموت . وهم يبتغون البحث عن معايير وقيم جديدة ، ويمثل هؤلاء الكتاب هيمنجواى Hemingway وجون شتاينبك John Steinbeck ، وهذه الفرق الثلاثة من الكتاب تتفق جميعا رغم ما بينهم من فروق فردية اذ انهم ينشدون المعانى الكامنة وراء الخبرة المادية المحسوسة .

ويمكن اعتبارهم استمرارا لتقليد بدأه ادجار الان پو Edgar Allan Poe وملفيل Melville ذلك التقليد الذى اختفى تقريبا فى بداية القرن العشرين كى يظهر من جديد على يديهم فى ثلاثينيات وأربعينيات هذا القرن .

وكان ظهوره فى هذه الفترة احتجاجا ورد فعل على اهمال القراء وانصرافهم عن الاتجاهات الميتافيزيقية الفلسفية واقبالهم على المناقشات المادية العملية .

ولم يلق هؤلاء الكتاب أول الأمر قبولا من جمهور القراء . بل ان اليأس دب الى قلوب بعضهم حتى انهم هاجروا الى أوربا أمثال هنرى جيمس وتوماس ايليوث ثم وأخيرا هنرى ميللر Henry Miller الذين عاشوا فى فرنسا فترة بعد الحرب العالمية الأولى كانوا فيها يعلنون اتجاهاتهم الصارخة ضد المادية التى تطغى على الفكر الغربى بأسره . ولكن التقدير الذى لقيته مؤلفات الكاتب ميللر بعد ما عانته من نسيان واهمال كامل والتقدير الذى تلقاه مؤلفات هؤلاء الكتاب المعاصرين الذين يعتبرون استمرارا لهيل ، هذا التقدير يدل دلالة واضحة على تحول العقلية الأمريكية من البرجماسية المادية العلمية الى التفكير الفلسفى المجرد .

الى جانب هذه الخصائص العامة التى يشارك فيها شتاينبك غيره من الكتاب نرى ان له ككل كاتب كبير صفات خاصة تميزه عن غيره من الكتاب ولعل أهم هذه الخصائص هى ايمانه بالمسئولية وقدرته على خلق الجو الملائم لابراز هذا الايمان . والمسئولية عنده ترتبط ارتباطا عميقا بالمشاكل الاجتماعية والسياسية للحياة الجماعية .

وقد نال شتاينبك شهرة بعد نشر قصته مسكن تورتيلا Tortilla Flat عام ١٩٣٥ ولكن الطريق الذى سيسير فيه لم يكن قد اتضح بعد ، وقد نجح فى هذه الرواية فى تصوير الحياة اليومية العادية لطائفة من الناس تشرب النبيذ وتنشد الهوى وتعيش دون أن تفعل شيئا ذا قيمة وقد نجح الى حد كبير فى أن يجعل وصفه للبيئة المحلية وصفا دقيقا فعلا . واستبانت فى هذه الرواية الدلائل الأولى عن دوافع الوعى الجماعى التى صارت فيما بعد من الخصائص الجوهرية فى شتاينبك. وتبلورت هذه الخصائص بوضوح أكثر فى مؤلفاته التالية خاصة فى قصته الشهيرة « الجرذان والرجال » التى ضمنها شتاينبك هدفا من أهدافه الأساسية وهو حنين الانسان الخالص للسلام والصفاء وتتلخص هذه القصة فى حلم صديقين فى كسب مبلغ من المال يمكنهما من شراء مزرعة صغيرة حتى يستقلا بعيشهما . وتنتهى نهاية أليمة لأن أقوى الصديقين يضطر مصادفة الى قتل أمرأة فيضطر صديقه الآخر الى قتله بالرصاص حتى يفلت من المحاكمة . وروعة هذه القصة تتركز فى التوازن الدقيق بين ارادة الصديقين الحرة وقوة الظروف المحيطة بهما . وهذا التوازن يحدث فى نفس القارىء خليطا عجيبا من أحاسيس الخوف والشفقة التى تحدثها المأساة دائما فى نفوسنا .

وتأتى بعد ذلك أنجح قصصه جميعا وقد نشرها عام ١٩٣٩ وهى كروم الغضب The Grapes of Wrath وهى أنجح قصصه لأنها أثارت اهتمام المسئولين بها وساعدت بصورة عملية على اتخاذ الوسائل لاصلاح حال العمال المهاجرين فى كاليفورنيا . وقد ربط التقارب بين هذه القصة وبين القصة الشهيرة « كوخ العم توم » الذى ساعدت على قيام حركة تحرير العبيد فى أمريكا . وقصة شتاينبك هذه تعالج عاملين اقتصاديين كان لهما أهمية كبرى فى أمريكا فى ثلاثينيات هذا القرن وهما أثر العواصف الرملية على الزراعة فى أكلاهوما ومشكلة الفقر بين العمال الذين يصلون كاليفورنيا وتثير القصة الآن مشكلة من أعقد مشاكل النقد الأدبى . فقد استطاع المسئولون أن يعالجوا هاتين المشكلتين بصورة فعالة . فهل يعنى هذا ان القصة تفقد أثرها بعد أن فقد موضوعها هذا الأثر ؟ جوابنا على ذلك انه اذا كان للقصة من أثر فى نفوس القراء اليوم فلابد ان هذا راجع الى عوامل لا تتصل بالظروف الاقتصادية والسياسية التى عالجتها . اننا يجب أن نبحث عن عناصر أكثر خلودا وأكثر عالمية من كل هذا وسنجده فى تلك المعايير الخاصة التى تنادى بها القصة عن الوعى الجماعى وطاقة الفرد فى مواجهة صعوبات لا يمكن وصفها ثم نجده فى قدرة شتاينبك على خلق جو عام عن طريق عرض مشاهد متتابعة .

ثم قامت الحرب العالمية الأخيرة وكان الكتاب الأمريكيون على عكس قرنائهم من كتاب القارة الأوربية يتمتعون أول الأمر بهدوء واستقرار نسبى ، ولكن الأحداث التى كانت تجرى على الجانب الآخر من العالم هزت مشاعرهم ومن بينهم شتاينبك فانتقل من معالجة مشاهد الحياة الاقليمية الى تسجيل صفحة من صفحات ذلك الصراع الدموى الدائر فى العالم الأوربى فى قصة أسماها « فى مغيب القمر » (١٩٤٢) . ولكى يعطى شتاينبك لقصته طابعا عالميا لم يشأ أن يحدد المكان الذى تجرى فيه الأحداث . وان كنا نستطيع أن نحدد ذلك بأنفسنا فالبلد المحتل هو النرويج والغزاة هم الألمان النازيون . وقد اعتبرت هذه القصة عند ظهورها أقوى قصة كتبت أثناء الحرب لتستحث الدول الديمقراطية الصغيرة على مواجهة العدوان والاحتلال الدكتاتورى . ووجد منها القراء فى هذه الفترة العصيبة بعض الغزاة يلجأون اليه وهم مدحورون مهزومون . وقد استقبل الأوربيون هذه القصة بحماسة عظيمة لأنهم كانوا يستطيعون أن يكملوا تفاصيلها بتجاربهم الشخصية وأن يترجموا آراء شتاينبك على ضوء الواقع القاسى الذى مر بهم . وهكذا قدم لهم شتاينبك لونا من الايمان كانوا فى مسيس الحاجة اليه فى تلك الفترة . ولم يكن هذا الايمان عقيدة مستمدة من الكتب أو التقاليد قدر ما هو ايمان نابع من الانسان فهو يعمل على تحقيقه وتفهمه بالخبرة والتجريب .

الجانب العالمى فى قصة « فى مغيب لقمر » :

ان موقف الناقد من هذه الرواية يشبه الى حـد كبير موقفه من قصة « كروم الغضب » فالانسان لا يستطيع أن يحكم على القصة مستقلة عن الظروف الواقعية التى تحيط بها . لقد لعبت هذه القصة كما سبق أن أشرنا دورا هاما فى تحريك المشاعر أثناء الحرب العالمية الأخيرة ولكن ماذا يكون موقفنا منها بعد ان وضعت الحرب أوزارها ؟ هل نقرأها اليوم كوثيقة من وثائق الحرب الماضية ؟ وهل ندرسـها كنموذج للانتاج الأدبى فى فترة من الفترات المضطرمة التى مرت بها الحضارة الانسانية . أى هل نقرؤها كأدب مناسبات؟ أم نقرأها كأدب عالمى لا يتقيد بفترة من الزمن أو مواقع من التـاريخ . اننا نهتم بهذه المشـكلة لأنها ليست مشكلة قصتنا هذه وحدها ولا هى مشكلة أديبنا هذا وحده انما هى مشكلة هذا النوع من الأدب جميعه . انها مشكلة الكثيرين من أدباء الشرق والغرب على السواء . فالأدب الذى يتعرض لمشاكل طارئة ويحاول أن يضع لها الحلول ، مثل هذا الأدب يتعرض دائما للاهمال والنسيان بعد أن تحل المشكلة أو تلقى عليها ستائر النسيان . وأدب كهذا لا يعيش ولا يخلد الا اذا تضمن عناصر وقيما فكرية وفنية تتخطى قيود الزمان والمكان. والأديب الناجح يدرك دائما هذه الحقيقة . وهذا ما فعله شتاينبك فقصصه الهادفة تحمل فى ثناياها معانى انسانية عامة

باقية تضمن لها الخلود وانتشار الأثر . وقد تختلف هـذه القصص جميعا سواء ما كتبه قبل قصتنا هذه « فى مغيب القمر » أو بعدها ، قد يختلف بعضها عن بعضها فى أحداثها ونغماتها ومشاهدها وطريقة عرضها ولكنها تتفق فى تأكيدها لشيء واحـد هو ما يمكن أن نسـميه بمذهب شتاينبك أو فلسفته التى تؤكد حرية الفرد وكرامته فى ظل الوعى الجمـاعى .

ولكن هذه الفلسفة وحدها ليست الشيء الخالد الباقى فى هذه القصة التى نقدمها اليوم . فقد شـاء شتاينبك أن يكسبها طابعا أكثر عالمية حينما جعل منها أكثر من مجرد قصة واقعية تمثل صراعا بين جيش غاز وشعب محتل . لقد نجح شتاينبك أن يجعل قصته قصة صراع بين معايير ومذاهب عالمية . انها صراع بين نظام الديمقراطية الذى يؤمن بحرية الفرد وذاتيته والنظام الدكتاتورى الذى يمحق حرية الفرد وذاتيتـه .

والديمقراطية عند شتاينبك أعظم من مجرد نظام سياسى خاص أو طريقة لتنظيم الحكومات أو سن القوانين عن طريق الانتخاب . انها شيء من هذا بكل تأكيد ولكنها فى معناها الواسع أكثر عمقا وأكثر من هذا جميعه فهى نظام للحيـاة الاجتماعية والفردية . وروح الديمقراطية كنظام للحيـاة تقتضى مشاركة كل فرد فى تكوين المعايير التى تنظم حياته مع غيره من الناس . هذه المعايير فى ذاتها ضرورة للرفاهية الاجتماعية والتطور الكامل لأعضاء المجتمع كأفراد .

وهكذا نرى العمدة أوردن فى هذه الرواية . فهو الحاكم الديمقراطى الذى يؤمن بروح الديمقراطية كما شرحناها : — « لقد استمر العمدة فى وظيفته هذه مدة طويلة حتى لقد أصبح يمثل فى أذهان البلدة المعنى المجرد للعمودية . حتى شيوخ البلدة كانوا يتمثلون العمدة أوردن فى أذهانهم ان هم رأوا كلمة العمدة مطبوعة أو مكتوبة . وكان هو ومنصبه يكونان وحدة فقد أضفى عليه منصبه الجلال وأضفى هو على منصبه الحياة » ولكن هذا العمدة الذى يتمتع بكل هـذه السلطة والمحبة والاجلال يدرك تماما ان ذلك مستمد من ارادة أهل البلدة فيقول لقائد جيش الاحتلال . « سيدى اننى فرد من هؤلاء القوم .. ان بعض الناس يقبلون القواد ويطيعونهم ولكن قومى انتخبونى . انهم بيدهم جعلوا منى عمدتهم ويستطيعون بيدهم أن يزيلونى عن منصبى ، ولعلهم يفعلون ذلك اذا ظنوا اننى أحالفكم .. » .

هذا ولا شك يتمشى مع أبسط قواعد الديمقراطية التى تعلن انه لا يوجد انسان أو مجموعة من النـاس لهم من الحكمة ورجاحة العقل ما يخول لهم حكم الآخرين دون موافقتهم .

ويستعين شتاينبك كثيرا بالمقابلة بين المواقف ليؤكد مذهبه ففى الوقت الذى يدين فيه الشعب المحتل بهذه الروح الديمقراطية نرى بعض أفراد الغزاة ممن ربوا على النظـام

الدكتاتورى يؤمنون بأن الذكاء قاصر على قلة ممتازة من الناس خولت لهم مواهبهم الطبيعية حق قيادة الآخرين وتوجيههم وسن القوانين واللوائح التى تساعدهم على الاطلاع بأعبائهم . وقد اختار المؤلف شخصيتين يبرز من خلالهما هذا الاتجاه هما الملازمان پراكل وتوندر ويقدمهما بقوله : « أما الملازمان پراكل وتوندر فقد كانا طالبين ما زالا بالجامعة دارسين للنظريات السياسية العصرية ، مؤمنين أن النظام الجديد قد أقامه عبقرى فهو من الضخامة بحيث لا يكلفان نفسيهما عناء البحث فى نتائجه » .

والايمان بالمساواة من أهم مقومات العقيدة الديمقراطية ولكن هذه المساواة لا تشمل المواهب الطبيعية . فالناس يتفاوتون فى مستوياتهم العقلية والفكرية وان كانوا يتساوون فى الحقوق والواجبات . فالديمقراطية اذن ايمان بالفرد العادى . ولعل هذا الايمان هو الذى جعل شتاينبك يتخير شخصياته أناسا عاديين . بل وقد ينزل ببعضهم الى درك الغباء . فزوج العمدة تظل الى آخر الرواية لا تدرك ما يجرى حولها بل انها لا تعرف أكثر من الجوانب السطحية فى شخصية زوجها . وهذا ما يقوله المؤلف عنها « .. ولعلها لم تفهمه (يعنى زوجها) تماما الا مرة واحدة أو مرتين فى حياتها جميعا ، ولكن الجوانب التى تفهمها فيه تفهمها بالتفصيل . فلا يغيب عنها أى نقص مهما يكن تافها فى شهيته

كما لا يفوتها أى مظهر من مظاهر ألمه أو اهماله أو أنانيته ولكن ذهنها لم يصل بها أبد الىأفكاره أو أحلامه أو أمانيه» ولم يشأ المؤلف أن يجردها تماما من التبصر فاستدرك قائلا « وان كانت فى لحظات من حياتها استطاعت أن ترى وميضا من داخل نفسه » . ثم هناك چوزيف الخادم الذى يتمتع بقدر كبير من الغباء .

ولكن رغم هذا التفاوت فى درجات الذكاء فان كل فرد يستطيع فى نظر الديمقراطية أن يؤدى شيئا نحو الآخرين وقد استعان المؤلف بالأزمة التى كانت تمر بها البلدة ليوضح الى أى مدى يصدق ذلك الرأى . فالخادم چوزيف الغبى يقاوم الغزاة ويتلصص على أخبارهم فيقول عنه المؤلف . « لقد أصبح چوزيف ذا رأى أخيرا .. » .

وآنى تسترق السمع وتحمل الرسائل وتدلف فى الظلام دون أن يراها أحد بل ان العمدة وهو ذاهب الى حتفه يوصيها أن تكون الى جانب سيدتها وقت الحاجة « آنى أريد أن تبقى مع السيدة طالما احتاجت اليك . لا تتركيها وحدها » .

والقصة الى جانب تصويرها لنظامين من نظم الحياة الاجتماعية والسياسية تتناول أيضا جوانب أخلاقية انسانية . فالكاتب مثلا يحاول أن يثبت مدى استحالة قيام شىء من العدالة المطلقة بين الغالب والمغلوب . ويتمثل ذلك فى حوادث

القتل التى جرت من الجانبين وقد لخصها العمدة أوردن فى قوله أثناء محاكمة أحد المواطنين لقتله ضابطا من جيوش الاحتلال . « أنا العمدة ، لا أملك أن أصدر حكم الاعدام ، بل ان أحدا فى هذه البلدة لا يملك هذا الحق فاذا أصدرت هذا الحكم خرجت على القانون كما تخرجون أنتم عليه .. لقد قتلتم منا ستة رجال فى أول قدومكم وطبقا لقانوننا أنتم متهمون بجريمة القتل ، جميعكم بلا استثناء . فما اهتمامكم بتلك الخرافات القانونية أيها الكولونيل . انه لا مكان للقانون بيننا . انما هى الحرب . ألا تعلم انك ستضطر الى قتلنا جميعا أو اننا نحن سنضطر الى قتلكم جميعا اذا حانت الفرصة . لقد حطمتم القانون بمجيئكم وأحللتم مكانه قانونا آخر .. » .

ولم تترك القصة الحروب الحديثة دون أن تندد بها فهى تقول عنها انها خلو من كل ما هو نبيل ، وهى قد جعلت من الانسان آلة تسير مع عقارب الساعة وجردته من روحه وما يرفعه عن مستوى الوحوش . لقد جعلت منه ذبابا يغزو مصايد الذباب .

وللقصة أثر خاص فى البلاد المحتلة أو حديثة العهد بالاحتلال ولكنه أثر عاطفى يضعف بزوال المؤثر لأنه يرتبط الى حد كبير بالمناسبة التى تثيره .

شتاينبك والمذهب الواقعى :

من العسير علينا أن نحدد الواقعية تحديدا قاطعا يشمل اتجاهاتنا وتفريعـاتها فى الفن والأدب فالفنـانون جميعـا يستمدون موضوعاتهم من منبع واحد وكلهم يعالجون الحياة فى صورة من صورها . كلما أعطونا احساسا بحقائق الأشياء صاروا واقعيين . فمن يستطيع أن يقول ان كاتبا واقعيا مثل أميل زولا مثلا يعطينا احساسا أصدق بالحيـاة من كاتب خيالى كشكسبير .

والواقعية فى معناها المعروف تعنى ذلك التصوير الحرفى للأشياء فتجلوها كما هى قائمة فى العالم الطبيعى دون حذف أو اضافة . والكاتب الذى يأخذ بهذا اللون من الواقعية يتناول قطاعا من الحياة ويصفه وصفا موضوعيا دقيقا . ولكن هذا النوع من الأدب سرعان ما فقد أثره فى نفوس القراء لأن الفنان فيه يتوارى تماما وراء صورة من الحياة نعرفها دون حاجة الى القراءة عنها . لقد خرج هذا اللون من الأدب الواقعى مملا سطحيا لا يحرك خيالنا ولا يثير انفعالاتنا وقد تحقق الأدباء أنفسهم من فشل هـذا التصوير الحرفى للحياة وآمنوا بأن الفن تهذيب للحيـاة وتشويق واثارة واقتنعوا بأن وظيفة الأدب اليوم وان كانت تتصل اتصـالا وثيقا بمعرفة الحق أو الواقع فان الكاتب بادراكه الداخلى يجب أن يحاول صهر هذا الواقع واعادة تشكيله بما يتفق

وأهدافه الخاصة ومدى فهمه للحياة . ان عملية الخلق تتركز فى صراع الفنان المرير بين الواقع الذى يعيش فيه وبين محاولته العنيفة فى خلق صور صادقة للعالم . انه يستعمل خياله لاعادة بناء التجارب التى تمر به وتشكيلها ولكنه فى الوقت نفسه يظل مرتبطا بواقع الحياة . وهدف الواقعية فى هذه الحالة هو أن تحمل الى القارىء احساسا قويا بالعناصر الملموسة فى تجاربه فى نطاق حياته العادية المألوفة . ولا يهم أن تكون هذه الصور مألوفة أو مثيرة ، قبيحة أو جميلة ما دامت تؤدى الينا الاحساس الجوهرى بواقع الأشياء .

هذا اللون من الواقعية هو الذى يدين به شتاينبك ويجعل منه منهجا له فى تأليفه الأدبى فهو يبدأ بالمألوف من الأشياء . فيصف من أحداث ملموسة فصلا بأكمله يصور فيه بطريقة واقعية مألوفة مواقف تدور حول أبطال من أناس لا يختلفون عن أوساط الناس فى شىء .

فهناك العمدة الذى ينتقل من موقف مضطرب متردد الى موقف بطولة هادئة ، وهناك زوجته التى لا تفهم موقفا أبدا ، وهناك عمال المنجم المواطنون المسالمون الذين يقاومون فى بطء وهدوء وعناد ، وهناك التاجر الذى يخون بلده ، والشابة التى يقتل الأعداء زوجها فتقتل ضابطا منهم حين يحاول أن يغازلها . وفى الجانب الآخر نجد القائد المجرب الذى يعرف أن حملتهم فاشلة ولكنه يتقيد بواجبه ، ثم نجد هؤلاء

المتعصبين من الضباط الذين يدارون خوفهم الذى يعمر قلوبهم وراء ستار من القسوة التى لا تحتمل ، ثم يتعلمون فى النهاية ان الانسان بقوته الوحشية المادية لا يستطيع أن يهزم الأفكار والمبادىء .

هذا النوع من الواقعية يرجع — أهم ما يرجع — الى قيام الديمقراطية والايمان بقيمة الفرد وذاتيته .

ولا تنتهى واقعية شتاينبك عند اختياره للموضوع أو الشخصيات بل انها تتمثل أيضا فى اهتمامه بالدقائق والتفاصيل عند وصفه للأحداث أو الأشخاص .

والاهتمام بالتفاصيل أساس من أسس المذهب الواقعى. فاذا هو قدم شخصية وصف لنا فى سرعة كل دقائقها .. من طولها الى عرضها الى سنها الى ماضيها وحاضرها الى ما يمكن أن يصل بها مستقبلها بل انه لا يفوته أن يرسم خلجاتها ومقوماتها النفسية ، ففى ومضة خاطفة يقدم لنا أحد الضباط بقوله « وخطا الضابط الى الداخل وألقى نظرة الى الدكتور وينتر ، كان يبدو كصورة مبالغ فيها لسيد انجليزى ، كان مترهل الجسم ، أحمر الوجه طويل الأنف فى غير اسراف وكان يبدو عليه الشقاء فى زيه ، شأنه فى ذلك شأن معظم الجنرالات البريطانيين » .

وبنفس الطريقة يصف لنا مثلا غرفة العمدة « وقد كانت حجرة الاستقبال فى القصر أنيقة مريحة ، فالكراسى الذهبية

مغطاة بكسوتها البالية متخذة أماكنها فى جمود ، كما لو كانت كثرة من الخدم لا تجد شيئا تفعله . والمدفأة ذات العقد الرخامى تحتضن سلة من الوقود الأحمر المتوهج فى غير اشتعال وقد اتخذ وعاء الفحم مكانه من رحبة المدفأة » .

ولعل القارىء وهو يقرأ هذا الوصف يحس فى جمل المؤلف ذات الفواصل القصيرة ما يرمى اليه من انه يصف الشىء كأنما يراه بنظرة واحدة أو على الأصح كأنما هو يراه من خلال عدسة الكاميرا السينمائية .

ولكن هذه الواقعية ليست واقعية حرفية ، بل ان التفاصيل التى يقدمها شتاينبك لا يقدمها لقيمتها الذاتية كما يفعل الكاتب الواقعى الخالص بل هو يستعين بالوصف الواقعى لخلق الجو واثارة حالة مزاجية معينة فى نفس القارىء . انه لا يعطينا صورة كاملة للواقع بل هو يختزل هذا الواقع ليوضح فى جلاء وتركيز أحداثا يريد ايضاحها لتبلور فكرة ترتبط بالمثل الأعلى للحرية والكرامة الشخصية .

ولم يتوخ شتاينبك الواقعية الدقيقة فى عرضه لشخصياته أيضا رغم ان هذه الشخصيات — كما أسلفنا — من أوساط الناس . ولكننا لا نعرف كل شىء عنها بل ان ما نعرفه عن حاضرها وماضيها له اتصال قريب أو بعيد بالأحداث الدائرة يتأثر بها أو يؤثر فيها .

وتأكيدا لفكرة الاتصال الوثيق بين الانسان والظروف

المحيطة به ، نرى شتاينبك يبدأ فصوله دائما بوصف دقيق للمكان الذى تجرى فيه الأحداث بل انه يربط كثيرا بين هذا المكان وروح هذه الأحداث . ففكرة الموت التى تسرى فى ثنايا الأحداث تزداد وضوحا فى وصفه لجو الشتاء وأثره فى مظهر البلدة الخارجى . وشتاينبك فى تأليفه للقصة أشبه بالكاتب المسرحى الذى يصف المنظر ثم يترك الأشخاص بعد ذلك يتحدثون ويعملون . فالمؤلف يمزج مزجا واضحا بين العرض القصصى والعرض المسرحى . فهو يصف كقصاص مسرح الأحداث ثم يختفى هو ويترك المسرح لشخصياته تمشى وتتكلم وتعمل دون تدخل منه ، فان تدخل كان ذلك بطريقة خفية فهو يوحى الى أحد أشخاص قصته فيقول عنه ما يدور بنفسه هو .

ومن الخصائص المسرحية فى القصة أيضا غلبة العرض المباشر والحوار المباشر على العرض الروائى أو الحوار المنقول . وهناك أيضا وحدة المكان فمعظم فصول القصة تجرى بين غرف بيت واحد هو قصر العمدة . وعلى الطريقة المسرحية نجده يصف المظاهر الأخرى من حجرات هذا القصر على لسان أشخاص يعيشون فيه .

والطابع السينمائى غالب أيضا فى عرض القصة ويتمثل فى الأوصاف السريعة المتلاحقة التى يقدمها المؤلف أحيانا وكانما هو يجول بعدسة الكاميرا السينمائية ليصور هذه

المناظر والأحداث ، ومطلع القصة خير مثال على ذلك فهو فى فقرة واحدة يومض لنا بصور متلاحقة عن احتلال البلدة : « انها صبيحة يوم الأحد وقد خرج ساعى البريد ورجل الشرطة يصيدان السمك فى القارب الذى يملكه التاجر المحبوب المستر كوريل .. ولقد كان ساعى البريد والشرطى على مبعدة عدة أميال فى البحر حينما أبصرا تلك الناقلة الصغيرة القاتمة تعبرهم فى هدوء وهى محملة بالجنود . ولما كانا موظفا البلدة .. اتجها من فورهما اليها ولكن المحتل كان قد استولى على الشكنات قبل أن يصل الموظفان الى الميناء » .. وكانت أفراد القوات المحلية .. قد سمعوا أزيز الطائرات ، ثم أبصروا عن بعد جنود المظلات يهبطون فخفوا الى البلدة وحين بلغوها وجدوا المحتل قد قطع دونهم الطريق بمدافعه .. » . « وفى منتصف الحادية عشرة كانت فرقة الموسيقى التابعة لقوات الاحتلال تعزف ألحانا عاطفية جميلة فى ميدان البلدة بينما وقف رجال البلدة وقد انفرجت أفواههم قليلا واتسعت حدقاتهم من الدهش يستمعون الى الموسيقى ويحملقون الى الرجال ذوى الخوذات الرمادية يحملون المدافع الرشاشة فى أذرعهم » . « وفى الحادية عشر الا ربع كان أوردن العمدة العجوز قد تسلم طلبا رسميا أن يتفضل فيسمح بالمقابلة للكولونيل لا نسر قائد قوات الاحتلال » ..

هذه المشاهد المتلاحقة تحقق غرضين أحدهما اظهار

السرعة التى تم بها احتلال البلدة ثم هى من الوجهة الفنية مشاهد سينمائية متتابعة ، وكأنما أراد شتاينبك بقصته أن تكون رواية ومسرحية وفيلما وقد كانت فعلا هذه الأشياء جميعا .

شخصيات القصة :

يستطيع القصاص أن يعرض أفكاره اما عن طريق الشخصيات أو عن طريق الأحداث أو عن طريقهما معا . وفى الحالة الأولى يلقى الاهتمام كله الى شخصياته يحللها ويجعل الأحداث ثانوية بالنسبة اليها ، وفى الحالة الثانية يحدث عكس ذلك ، أما فى الحالة الثالثة فهو يعادل فى الأهمية بين المواقف والأشخاص . وقد اختار شتاينبك الطريقة الأولى — على ما يبدو لنا — لعرض هذه القصة . فالقصة فى نظرنا تنبع من الشخصيات بل ان الشخصيات وحدها هى التى تحدد مجرى القصة فهى المسئولة عن قيام هذه الأحداث ، بعض هذه الشخصيات مضطر الى أداء عمله ، كما هو الحال بالنسبة الى قوات الاحتلال ، وبعضها مخير فيما يقدم عليه من أعمال كما هو الحال بالنسبة لأفراد الشعب المحتل . ولا نعنى بهذا أن الأحداث لا تعنى شيئا لأننا لا نستطيع أن نفهم الشخصيات فهما كاملا من غير الأحداث التى تدور بيديها . ولهذا كان من الصعب علينا أن نحلل الشخصيات خارج اطارها الزمنى والمكانى من الأحداث ولكن ما نريد أن نقوله هو ان القصة تكاد تختفى وراء الشخصيات .

وشتاينبك كثيرا ما يوقف مجرى القصة كى يصف شخصياته كما فعل فى بداية الفصل الثانى عندما استعرض لنا هيئة أركان الحرب فردا فردا . ولعل من وسائله فى عرض معالم الشخصية أن يوضح لنا موقف هذه الشخصية من نفسها عن طريق تصوير موقفها من غيرها من الناس أو من الأحداث الدائرة . واذا وقع حدث من الأحداث لم يهتم بهذا الحدث لذاته ، بل انه ينتقل من شخصية الى شخصية محللا أثر هذا الحدث فى نفس كل منها وبهذا يلقى عليها ضوءا جديدا .

ان ما نقرأه ليس مجرد قصة حافلة بأحداث البطولة والمواقف المثيرة ولكننا نقرأ عن جماعة من الناس وجدوا فى موقف معين فاستجابوا له استجابات معينة وتختلف المواقف فتختلف الاستجابات .

واننا لنتردد قليلا قبل أن نتخير بطل هذه القصة فالبطولة تتقاسمها شخصيتان هما العمدة أوردن والكولونيل لانسر قائد جيش الاحتلال . واذا كان الحكم لانفعالاتنا القومية والوطنية فى اختيار البطل كان العمدة أوردن — ولا شك — هو ذلك البطل ، ولكننا اذا حكمنا القواعد الفنية والأدبية كان لانسر هو البطل . ولما كنا فى عرضنا هذا نستهدف الفن أكثر مما نستهدف العاطفة فاننا سنبدأ بلانسر كبطل لهذه القصة .

لم يصور شتاينبك لانسر كقائد فظ غليظ القلب مجرد من العاطفة ، بل أراد أن يكون صورة لمأساة الفرد فى مجتمع استبدادى . انه الرجل يعمل وهو لا يؤمن بما يعمل . فكثيرا ما يتركه المؤلف يقول كلاما يعتبر خيانة لجيشه وبلده وزعيمه ولكن ما أن تحين ساعة العمل حتى يتجرد من عواطفه جميعها ويصبح الجندى الآلة الذى ينفذ ما يصدر اليه من أوامر . كان يدرك منذ اللحظة الأولى أن التعاون مع أفراد الشعب أمر محال وكان يحتقر التاجر الذى خان وطنه رغم انه عاونهم فيصبح به : « انك حتى لن تنال احترامنا » . ثم هو يقول : « ليس هناك قوم مسالمين .. وليس هناك شعب صديق فقد احتللنا هذه البلاد ، وأنت — بما يسمونه خيانة — هيأت لهذا الاحتلال .. اننا فى حرب مع هذا الشعب » :

وكانت للانسر من خبراته فى الحرب السابقة ما يؤكد له سخافة المحاولات التى يقوم بها جيش بلاده لاحتلال العالم .

ولعل أجمل مواقف الرواية كلها بالنسبة الى الكولونيل لانسر هو ذلك الموقف الذى جمع فيه المؤلف بينه وبين العمدة أوردن والدكتور وينتر فى الفصل الأخير من القصة وجعلهم يرددون أقوالا لسقراط . لقد نسوا فى هذه اللحظة انهم أعداء وان لانسر حكم على العمدة بالموت فقد جمعهم سقراط كبشر يجمعهم العالم كله ، وكرجال مثقفين أو كرجال

تمتد مدنيتهم الى أصل واحد نبع فى بلاد الاغريق القديمة . ثم سرعان ما تنحسر هذه اللحظة النورانية عن لانسر فيرتد الى الواقع ويخاطب أوردن بوصفه قائد جيش الاحتلال آمرا مهددا .

أما العمدة فتتطور شخصيته من السلبية والارتباك الى العمل الايجابى ثم الى موقف البطولة فى النهاية . ولعل العمدة وهو الشخصية الوحيدة التى تتطور بالرواية من الواقعية المألوفة التى ابتدأت بها الى سوامق فلسفية عالمية تبلغ قمتها عند ترديدها لأقوال سقراط .

وهناك أفراد جيش الاحتلال . لقد شاء المؤلف أن يصور مأساتهم أيضا . انها مأساة الشباب الذى تدرب على النصر ولم يتدرب على مواجهة الهزيمة . وقد لخصها لانسر تلخيصا مريرا فى قوله مخاطبا أحد ضباطه : « والآن سألقى اليك بحديث أرجو أن تفهمه .. أنت لم تعد رجلا .. انك جندى .. ان راحتك لا أهمية لها بل ان حياتك ليست بذات أهمية كبيرة يا أيها الملازم .. ان عليك أن تتلقى الأوامر فتنفذها ، ستكون أغلب الأوامر غير سارة ولكن ليس هذا من شأنك ، لن أكذبك أيها الملازم .. كان لابد أن يعدّوك لهذا ، لا للطرقات المفروشة بالأزهار .. كان يجب أن يبنوا روحك على الحقائق ولا يخدعوها بالأكاذيب » ولعل هذا القول لا يكشف عن مأساة صغار الضباط فحسب ، بل انه يكشف

عن مأساة لانسر نفسه ومأساة كل فرد فى فترات الحروب أو فى المجتمع الآلى الحديث بأجمعه . وتصوير شتاينبك لحالة هؤلاء الضباط فى الفصل الخامس من الرواية من أروع الصور النفسية التى يمكن لكاتب أن يرسمها .

عبد الله البشير — ثروت أباظة

بلغت الساعة الحادية عشر الا الربع ، وكان كل شيء قد انتهى فالبلدة قد احتلت ، والمدافعون قد انهزموا ، والحرب قد وضعت أوزارها . فقد عنى المحتل بهذه الحملة كما لو كان يعد لحملة أكثر ضخامة من حملته تلك .

انها صبيحة يوم الأحد وقد خرج ساعى البريد ورجل الشرطة يصيدان السمك فى القارب الذى يملكه التاجر المحبوب المستر كوريل . لقد أعارهما قاربه الشراعى الأنيق ليصيدا به فى يومهما هذا . ولقد كان ساعى البريد والشرطى على مبعدة عدة أميال فى البحر حين أبصرا تلك الناقلة الصغيرة القاتمة تعبر بهم فى هدوء وهى محملة بالجنود ، ولما كانا موظفا البلدة فقد كان هذا من صميم عملهما بلا ريب وهكذا اتجها من فورهما الى البلدة ، ولكن المحتل كان قد

استولى على الثكنات قبل أن يصل الموظفان الى الميناء ، وهكذا لم يتمكن الشرطى ولا ساعى البريد أن يدخلا حتى الى مكتبيهما فى دار البلدية ، وحينما أصرا على حقهما فى الدخول قبض عليهما كأسيرى حرب وسجنا فى سجن البلدة .

وكان المستر كوريل التاجر المحبوب قد دعا القوات المحلية الى القيام بمسابقة فى الرماية وزودهم بالغذاء ، ومعدات المسابقة ، من أهداف وبارود وجوائز ، وقد اختار لها مكانا ، غابته الوارفة الواقعة على مبعدة ستة أميال من وراء التلال ، وهكذا كانت القوات المحلية جميعها ، التى يبلغ عددها اثنى عشر جنديا ، خارج البلدة أيضا فى صبيحة هذا الأحد نفسه .

وقد كانت القوات المحلية مكونة من فتيان ضخام الأجسام فارعى الطول وقد سمعوا أزيز الطائرات ثم أبصروا عن بعد جنود المظلات يهبطون فخفوا الى البلدة وحين بلغوها وجدوا المحتل قد قطع دونهم الطريق بمدافعه .

وقد كان الجنود الفارعو الطول على خبرة ضئيلة بالحرب وعلى جهل تام بالهزائم وهكذا أطلقوا النار من بنادقهم ، فأرعدت المدافع هنيهة ، فاذا ستة من الجنود قتلى اختلطت أجسامهم فى كومة واحدة ، واذا ثلاثة آخرون على شفا الموت مشوهون بينما انفلت الثلاثة الباقون الى التلال يحملون بنادقهم .

وفى منتصف الحادية عشر كانت فرقة الموسيقى النحاسية

التابعة لقوات الاحتلال تعزف ألحانا عاطفية جميلة فى ميدان البلدة بينما وقف رجال البلدة وقد انفجرت أفواههم قليلا واتسعت حدقاتهم من الدهش يستمعون الى الموسيقى ، ويحملقون فى الرجال ذوى الخوذات الرمادية يحملون المدافع الرشاشة فى أذرعهم .

وفى العاشرة وثمان وثلاثين دقيقة ، كانت كومة الجنود الستة قد دفنت ، وكانت المظلات قد طويت ، وكانت القوة قد اتخذت من مخزن المستر كوريل مأوى لها ، حيث كانت أغطيتهم قد أخذت مكانها على أرفف المخزن وحيث هيئت لهم السرر .

وفى الحاديه عشرة الا الربع ، كان « أوردن » العمدة العجوز قد تسلم طلبا رسميا أن يتفضل فيسمح بالمقابلة للكولونيل لانسر قائد قوات الاحتلال ، وقد حدد الطلب الرسمى الزمان فهو الحادية عشرة تماما ، والمكان فهو قصر العمدة ذو الحجرات الخمس .

وقد كانت حجرة الاستقبال فى القصر أنيقة مريحة ، فالكراسى الذهبية مغطاة بكسوتها البالية متخذة أماكنها فى جمود كما لو كانت كثرة من الخدم لا تجد شيئا تفعله . والمدفأة ذات العقد الرخامى تحتضن سلة من الوقود الأحمر المتوهج فى غير اشتعال ، وقد اتخذ وعاء الفحم مكانه من رحبة المدفأة ، ووقفت على الرف ساعة كبيرة من الصينى المموج زخرفت بالملائكة الهابطة وحجبت بالمزاهر الضخمة ،

وكان ورق الحائط قانى الاحمرار محلى برسومات ذهبية .

أما الزخارف الخشبية البيضاء فقد كانت جميلة ونظيفة . أما اللوحات على الحائط فقد كان معظمها يصور مواقف البطولة الرائعة للكلاب الضخمة وهى تنقذ الأطفال من أخطار تتهددهم ، فلا الماء ولا النار ولا الزلازل بمستطيعة أن تنال شيئا من الطفل ما دام الى جانبه كلب ضخم .

وكان الدكتور « وينتر » العجوز مؤرخ القرية وطبيبها جالسا الى جانب المدفأة بذقنه وبساطته وسماحته ، يرقب فى ذهول، ابهاميه وقد أخذتا تدوران وتدوران بينما اشتبكت يداه على حجره . وكان الدكتور وينتر بسيطا لا يكشف عمقه الا رجل عميق . رفع الدكتور وينتر نظره الى چوزيف خادم العمدة ليرى ان كان يعجب لحركة ابهاميه الدائرية .

ثم ألقى سؤاله « الحادية عشرة ؟ » فأجاب چوزيف شاردا : « نعم يا سيدى، لقد حددت الرسالة الحادية عشرة».

— هل قرأت الرسالة ؟

— لا يا سيدى ، ان سعادته قرأها لى .

وراح چوزيف يفحص الكراسى المذهبة ليرى ان كانت قد تحركت عن موضعها الذى تركها فيه آخر مرة ، وقد اعتاد چوزيف أن يسب الأثاث مرتئيا فيه انه اما وقح أو خبيث أو مغبر ، فإن عالما يكون فيه العمدة قائدا للرجال ، يحق فيه لچوزيف أن يكون قائدا للأثاث والأدوات الفضية والأطباق .

وقد كان چوزيف كهلا ضامرا ، جادا ، معقدا فى حياته لا يكشف بساطته الا رجل عميق . لم ير چوزيف ما يثير الدهشة فى حركة ابهامى الدكتور وينتر الدائرية أو هو فى الحقيقة كان يرى فيها ما يثير الأعصاب .. كان چوزيف يعتقد أن شيئا على جانب من الأهمية يحدث فى هذه الأثناء : فقد كان الجنود الأجانب فى البلدة ورجال الجيش المحلى يقتلون أو يعتقلون ، وعلى كل حال فان چوزيف — طال الوقت أم قصر — لابد له أن يكوّن لنفسه رأيا عن كل هـذه الأمور ، فهو لا يقبل الرعونة ، ولا الابهامات الدائرة ، ولا العبث بين الأثاث .

وحرك الدكتور وينتر كرسيه بضع بوصات عن مكانه المحدد ، فأخذ چوزيف يترقب — فى غير صبر — اللحظة التى يستطيع فيها أن يعيد الكرسى الى مكانه وأعاد الدكتور وينتر قوله « الحادية عشر ، وسيكونون هنا أيضا ، انهم قوم يقدرون الوقت قدره يا چوزيف » .

وقال چوزيف دون أن يسمع ما كان يقال «نعم ياسيدى» وأعاد الدكتور قوله « يقدرون الوقت قدره » وقال چوزيف « نعم يا سيدى » .

— الوقت والاله .

— نعم يا سيدى .

— انهم يسارعون الى مصيرهم كأنما مصيرهم لن ينتظر ، انهم يدفعون الأرض الدائرة بأكتافهم ليزيدوا من دورانها .

فقال چوزيف « انت محق تماما يا سيدى » فقد ملّ چوزيف تكراره لنفس الجملة « نعم يا سيدى » .

لم يكن چوزيف موافقا على هذه الطريقة فى الحديث ، فهى لا تسمح له أن يكون لنفسه رأيا عن أى شىء . فلو انه قال للطاهية آخر النهار « قوم يقدرون الوقت قدره يا آنى » لما كان لكلامه معنى على الاطلاق ، وسوف تسأله آنى « من ؟ » ثم « لماذا ؟ » ثم هى ستقول أخيرا « هذا تخريف يا چوزيف » .

فقد حاول چوزيف من قبل أن يحمل ملاحظات الدكتور وينتر الى غرفة الخدم ، فكان مصيرها دائما أن تتبين آنى انها ملاحظات خرافية .

ورفع الدكتور وينتر عينيه عن ابهاميه وأخذ يلاحظ چوزيف وهو ينظم الكراسى .

— ماذا يفعل العمدة ؟

— يلبس لاستقبال القائد يا سيدى .

— يلبس بغير معونتك ؟ لن يكون حسن الهندام اذا لم تعاونه .

— ان السيدة تعاونه .. فان السيدة تريده أن يبدو فى أحسن مظهر .. انها ..

ويستدرك چوزيف وقد احمر وجهه خجلا .. « السيدة تقتلع الشعر من أذنيه يا سيدى ، فهو لا يريدنى أن أقوم بهذا العمل لأن الملقط يدغدغه » .

فقال الدكتور وينتر « بالطبع يدغدغ » فقال چوزيف « ولكن السيدة تصر » .

وضحك الدكتور وينتر فجأة ثم وقف وقرب يديه من النار ، بينما تسلل چوزيف من خلفه بمهارة وأعاد الكرسى الى مكانه الذى يجب أن يكون فيه . وقال الطبيب « اننا شعب عجيب ، وطننا يسقط ، وبلدتنا تحتل ، والعمدة على وشك أن يستقبل المحتل ولكن السيدة تقبض على عنق العمدة لتقتلع الشعر من أذنيه عنوة » .

فقال چوزيف « ان الشعر يتكاثف فى أذنيه وفى حاجبيه أيضا ، وان غضب سعادته يزداد عند تزجيج حاجبيه ، فهو يتألم من ذلك حتى لا أعتقد ان السيدة نفسها تستطيع تزجيجهما له » .

فقال الدكتور وينتر « ولكنها ستحاول » .

— انها تريده أن يبدو فى أحسن مظهر يا سيدى .

وحينئذ بدا وجه تعلوه خوذة من النافذة الزجاجية لباب الدخول ، ثم سمع طرق على الباب ، فكأنما تسرب بعض الشعاع الدافىء من الحجرة لتحل مكانه سحابة صغيرة من الظلام ونظر الدكتور وينتر الى الساعة وقال « انهم مبكرون، دعهم يدخلون يا چوزيف » .

وذهب چوزيف الى الباب وفتحه ، وخطا جندى الى

الداخل مرتديا معطفا طويلا ، واضعا خوذة على رأسه وقد حمل فى يديه مدفعا رشاشا . وألقى الجندى نظرة سريعة حوله ثم خطا خطوة جانبية ، ومن خلفه بدا ضابط واقفا على المدخل . وقد كان زى الضابط من النوع المألوف ، ولم يكن ثمة ما يوضح رتبته الا شارة على كتفه .

وخطا الضابط الى الداخل وألقى نظرة الى الدكتور وينتر ، كان يبدو كصورة مبالغ فيها لسيد انجليزى ، كان مترهل الجسم ، أحمر الوجه ، طويل الأنف فى غير اسراف ، وكان يبدو عليه الشقاء فى زيه ، شأنه فى ذلك شأن معظم الچنرالات البريطانيين ، وقف الضابط عنـد المدخل وقد تفرس فى الدكتور وينتر ثم قال : « هل أنت العمدة أوردن يا سيدى ؟ وابتسم الدكتور وينتر قائلا « لا .. لا ، لست اياه يا سيدى » .

— فأنت موظف اذن ؟

— لا .. أنا طبيب البلدة وصديق العمدة .

فقال الضابط « أين العمدة أوردن ؟ » .

— يرتدى ملابسه لاستقبالك ، انت القائد أليس كذلك؟

— لا .. لست به ، أنا الكابتن « بنتيك » .

وانحنى الضابط فأجابه الدكتور وينتر بانحنائة خفيفة . واستطرد الكابتن بنتيك وكأنما أدركه بعض الارتباك مما سيقول :

— ان التعليمات العسكرية يا سيدى تحتم علينا أن نفتش الغرفة قبل أن يدخلها القائد خشية أن يكون بها بعض سلاح . ولا نقصد بذلك الى أى اهانة .

وحينئذ التفت الضابط الى خلفه ونادى :

— يا جاويش

وتقدم الجاويش مسرعا الى چوزيف وأجرى يديه على جيوبه ثم قال « لا شيء يا سيدى » .

فقال الكابتن بنتيك للدكتور وينتر « أرجو أن تلتمس لنا العذر » .

وذهب الجاويش الى الدكتور وينتر وتحسس جيوبه وما لبثت يده أن توقفت عند الجيب الداخلى لمعطف الطبيب ، ثم سارع فأدخل يده الى هذا الجيب ثم أخرجها وقد أمسكت بعلبة صغيرة مسطحة من الجلد الأسود حملها الى الكابتن بنتيك الذى فتحها فوجد بها بعض الأدوات الطبية فقد كانت تحتوى على مشرطين وبعض الابر الطبية وبعض الابر التى تستعمل فى الحقن . وأقفل الضابط العلبة ثانية ثم أعطاها للدكتور وينتر .

وقال الدكتور وينتر « أترى اننى طبيب قروى ، لقد اضطررت مرة الى استئصال الزائدة الدودية بسكين مطبخ ، ومنذ ذلك الحين وأنا أحمل هذه العلبة معى دائما » فقال الكابتن بنتيك « أعتقد انه توجد هنا بعض الأسلحة النارية »

وفتح الضابط كتابا صغيرا يحمله فى جيبه . فقال الدكتور وينتر « انك محق » .

ـــ نعم ، فان الرجل الذى ساعدنا من المواطنين كان يعمل هنـــا .

فقال الدكتور وينتر « ما أظنك ستخبرنى عن هذا الرجل الذى ساعدكم » .

. فقال بنتيك « ان عمله قد تم الآن .. ولا أظن ان هناك أى ضرر فى اخبارك .. ان اسمه هو كوريل » .

فقال الدكتور وينتر فى دهشة « چورچ كوريل .. ؟ لماذا ؟ ان هذا يبدو مستحيلا ! .. لقد قام بكثير من الأعمال فى سبيل هذه البلدة ؟ فلماذا ؟ لقد قدم جوائز لمسابقة الرماية التى أقيمت فى التلال هذا الصباح ؟ » .

وعندما قال هذا بدا فى عينيه انه أصبح يدرك ما حدث ، وأخذ فمه ينطبق فى بطء ثم قال « لقد أدركت .. انه من أجل هذا أقام مسابقة الرماية .. نعم لقد أدركت .. ولكن چورج كوريل ؟ .. هذا أمر يبدو مستحيلا » .

وفتح الباب من الجهة اليسرى ودخل العمدة أوردن ، وقد غرس خنصره فى أذنه اليمنى وارتدى سترة الصباح الرسمية تحيط بعنقه القلادة الخاصة بوظيفته ، وكان له شارب أبيض ضخم أشعث ، وقد استقر على كل عين من عينيه شارب آخر أصغر حجما .

وكان من الواضح ان رأسه لم تخرج من تحت الفرشاة الا فى هذه اللحظة فقد كان شعره يتواثب الآن مناضلا ليعود الى سابق انتفاشه وتحرره .

لقد استمر العمدة فى وظيفته هذه مدة طويلة حتى لقد أصبح يمثل فى أذهان أهل البلدة المعنى المجرد للعمودية . حتى شيوخ البلدة كانوا يتمثلون العمدة أوردن فى أذهانهم ان هم رأوا كلمة العمدة مطبوعة أو مكتوبة . وكان هو ومنصبه يكونان وحدة ، فقد أضفى عليه منصبه الجلال وأضفى هو على منصبه الحياة .

ومن وراء العمدة ظهرت السيدة .. صغيرة الجسم مجعدة القسمات ، واضحة الشراسة كانت تعتقد انها خلقت رجلها هذا جميعه ، فهى مشغولة الخاطر به دائما وكانت واثقة ان فى مقدورها أن تعيد خلقه فى صورة أحسن لو أن الفرصة أتيحت لها أن تعيد خلقه ولعلها لم تفهمه تماما الا مرة أو مرتين فى حياتها جميعا ، ولكن الجوانب التى تفهمها فيه تفهمها جيدا وتدرك تفاصيلها . فلا يغيب عنها أى نقص مهما يكن تافها فى شهيته ، كما لا يفوتها منه أى مظهر من مظاهر ألمه أو اهماله أو أنانيته ، ولكن ذهنها لم يصل بها أبدا الى أفكاره أو أحلامه أو أمانيه . وان كانت فى لحظات من حياتها استطاعت أن ترى وميضا من داخل نفسه .

خطت السيدة الى جانب العمدة ، وأمسكت بيده

واقتلعت اصبعه من أذنه المحتقنة وألصقت ذراعه الى جانبه ، كما لو كانت تخرج اصبع طفل من فمه .

— لم أكن أعتقد أنه مؤلم الى هذا الحد الذى تصفه .

ثم تلتفت الى الدكتور وينتر :

— لم يدعنى أزجج له حواجبه .

فقال العمدة أوردن « انها تؤلمنى » .

— حسنا جدا فلا حيلة لى معك ما دمت تريد أن تبدو فى هذا المظهر .

ثم هى تصلح من شأن رباط رقبته وما كان محتاجا لاصلاح . ثم هى تقول :

— يسرنى وجودك هنـــا يا دكتور .. تظن كم منهم سيحضر ؟

وعندئذ رفعت بصرها فرأت كابتن بنتيك فقالت « أوه الكولونيل » .

فقال الكابتن بنتيك « لا يا سيدتى انما أنا أعد لمجىء الكولونيل :: يا جاويش » :

وكان الجاويش يقلب الحشايا وينفحص ما خلف الصور فأسرع الى العمدة أوردن وأجرى يديه على جيوبه فقال الكابتن بنتيك « أرجو أن تعذره يا سيدى فانها التعليمات »

ونظر مرة أخرى الى الكتاب الصغير الذى يمسك به وقـــال :

« يا صاحب السعادة أظن أن هنا أسلحة نارية ، قطعتان على ما أعتقد » .

فقال العمدة أوردن « أسلحة نارية !! لعلك تقصد الى البنادق ، نعم عندى بندقية رماية ، وبندقية صيد.. قد لا تعلم اننى لم أعد أخرج كثيرا للصيد ، وان كانت الرغبة فى الخروج تراودنى دائما الا اننى لا أخرج حين يبدأ الموسم ، فما عدت ألقى فيه من المتعة ما كنت ألقى » .

وقال الكابتن بنتيك فى اصرار « أين هـذه البنـادق يا صاحب السعادة ؟ » .

وأجرى العمدة يده على ذقنه فى بطء محاولا التذكر .

— نعم ؟ .. أظن ..

ثم استدار الى السيدة قائلا :

— أليست الأسلحة فى مؤخرة خزانة غرفة النوم الى جانب العصى ؟

فقالت السيدة : « نعم ، ولهذا فكل غرزة فى الملابس الموضوعة بهذه الخزانة تفوح برائحة الزيت .. ليتك تجد لهذه الأسلحة مكانا آخر » .

فقال الكابتن بنتيك « يا جاويش » فانطلق الجاويش فورا الى غرفة النـوم وقال الكابتن « انها مهمة ثقيـلة ، انى آسف » .

وعاد الجاويش حاملا بندقية رماية ذات ماسورتين ، وبندقية أخرى أنيقة للصيد ذات حميلة للكتف[1]. وأسندهما الى الجدار الجانبى للمدخل .

قال الكابتن بنتيك « أشكركم جميعا ، أشكرك يا صاحب السعادة ، وشكرا للسيدة » .

وخرج الكابتن من الباب الأمامى متبوعا بالجاويش وقد حمل البندقيتين فى يد واحدة والمدفع الرشاش على كتفه الأيمن .

فقالت السيدة « ظننت لحظة انه الكولونيل ، انه فتى وسيم » .

فقال الدكتور وينتر فى تهكم « لا ، لقد جاء فقط ليضمن سلامة الكولونيل » .

وكانت السيدة تفكر فى عدد الضباط المنتظر مجيئهم ونظرت فوجدت چوزيف يسترق السمع بلا حياء ، فأشارت اليه برأسها فى غضب ، فعاد سبيله الى الأشياء التافهة التى كان يقوم بها .. وأخذ ينفض الغبار عن الأثاث مرة أخرى .

وقالت السيدة « كم تظن عدد القادمين ؟ » .

وجذب الدكتور وينتر كرسيا فى غضب وعاد الى الجلوس قائلا : « لا أدرى » .

---

(١) ما يعلق به السلاح .

وقالت السيدة لچوزيف فى تجهم « حسنا ، فهل تقدم لهم الشاى ، أم كأسا من النبيذ لقد كنا نناقش ذلك الآن ، فاذا كنا سنقدم شيئا فكم عددهم ، واذا كنا لن نقدم شيئا فماذا نفعل » .

وهز الدكتور وينتر رأسه وابتسم :

— لا أدرى ، فاننا لا غزونا ولا غزينا منذ زمن بعيد ولا أعرف ما يجب أن نفعله .

وعاد اصبع العمدة أوردن الى أذنه المحتقنة وقال « أظن انه لا يليق بنا أن نقدم شيئا فان الشعب لا يرضى عن هذا ، ولا أعرف لماذا لا أريد أن أشرب النبيذ معهم » .

وقالت السيدة للدكتور فى رجاء « ألم يكن الناس فى الزمن الماضى — أعنى القواد منهم — يتبادلون التحية على كأس من النبيذ » ؟

وأومأ الدكتور وينتر برأسه موافقا وقال : « نعم لقد كانوا يفعلون ذلك حقا » .

ثم هز رأسه فى بطء :

— ولكن لعل الأمر مختلف ، فقد كان الملوك والأمراء يتصرفون فى الحرب كما لو كانوا انجليزا يلهون فى الصيد ، فعندما يموت الثعلب يجتمعون للافطار احتفالا بوقوع الصيد ولكن قد يكون العمدة أوردن على حق ، فقد لا يحب الشعب أن يشرب العمدة النبيذ مع الغزاة .

وقالت السيدة « لقد أخبرتنى آنى أن الشعب محتشد هناك يستمع الى الموسيقى ، وما داموا ارتضوا ذلك فما لنا لا نحافظ نحن على التقاليد المهذبة » .

ونظر العمدة اليها فى حدة وقال فى صوت حازم « أيتها السيدة ، أظن — بعد اذنك — اننا لن نتناول النبيذ ، فالشعب الآن فى حيرة من أمره فهو قد عاش فى ظلال السلام طويلا حتى أصبح خالى الذهن عن الحرب . وسوف يتعلم فلا يحار ثانية ، وقد انتخبونى حتى أدفع عنهم الاضطراب والحيرة . لقد قتل ستة من أبناء البلدة فى هذا الصباح . ولن يكون هناك احتفال بوقوع الصيد . فالحرب ليست لهوا عند الشعب » .

وانحنت السيدة انحناءة خفيفة ، فقد وقف منها زوجها موقف العمدة مرات قبل ذلك ، فتعلمت ألا تخلط فيه بين العمدة والزوج .

ونظر العمدة أوردن الى ساعته ، وحين دخل چوزيف يحمل فنجانا صغيرا من القهوة أخذه وهو شارد الذهن ثم قال « شـــكرا » .

وأخذ يرشف القهوة ثم قال للدكتور وينتر « يجب أن أكون على بينة من أمرى ، أتعلم كم تبلغ قوات الاحتلال ؟ »

فقال الطبيب « ليست كبيرة فيما أعتقد ، فما أظنها تعدو

المائتين والخمسين .. ولكن جميعهم يحمل هـذه المدافع الرشاشة الصغيرة » .

ورشف العمدة قهوته ثانية وتابع حديثه « وماذا عن بلاد الوطن الأخرى ؟ » .

ورفع الطبيب كتفيه ثم أنزلهما ، واستطرد العمدة فى يأس « ألم يلقوا مقاومة فى أى مكان ؟ » ومرة أخرى رفع الطبيب كتفيه وقال « لا أعرف فالأسلاك مقطوعة ومنتهبة ، ولا أخبار لدينا » .

— وأولادنا .. وجنودنا ؟

فقال الطبيب « لا أعلم » .

وقال چوزيف مقاطعا « لقد سـمعت .. أعنى ان آنى سمعت .. » .

— ماذا يا چوزيف ؟

— قتل ستة رجال يا سيدى بهذه المدافع الرشاشة ، وسمعت آنى ان ثلاثة قد جرحوا ووقعوا فى الأسر .

— ولكنهم كانوا اثنى عشر .

— سمعت آنى ان ثلاثة قد هربوا .

واستدار العمدة فى حدة سائلا :

— من هؤلاء الذين هربوا ؟

— لا أعرف يا سيدى ، فان آنى لم تسمع بأسمائهم .

ومرت السيدة بأصبعها على منضدة لترى ان كان هناك غبار ثم قالت « چوزيف .. عندما يأتون كن قريبا من الجرس فلعلنا نحتاج الى خدمات بسيطة . والبس معطفك الآخر يا چوزيف ، ذلك المعطف ذو الأزرار » .

ثم توقفت وأخذت تفكر هنيهة .

— وعلى فكرة يا چوزيف ، عندما تؤدى ما يطلب منك ، اخرج من الغرفة ، فانه لا يليق أن تحوم حولهم مستمعا لأحاديثهم ، كما يفعل الأجلاف .

— أمرك يا سيدتى .

— لن نقدم النبيذ يا چوزيف ، ولكن عليك أن تضع بعض السجائر فى هذا الصندوق الفضى وتجعله قريبا من هنا .. ولا تحك الكبريت على نعلك ، ان أردت أن تشعل سيجارة الكولونيل . حك الكبريت على علبته .

— أمرك يا سيدتى .

وفك العمدة أوردن أزرار سترته ، وأخرج ساعته ونظر فيها ثم أعادها وراح يزرر سترته مدخلا الأزرار فى غير عراها فتقدمت اليه السيدة وراحت تعيدها الى عراها الصحيحة .

وسأل الدكتور وينتر :

— كم الساعة الآن ؟

— الحادية عشرة الا خمس دقائق .

وقال الطبيب « انهم قوم يقدرون للوقت قدره ، وسيحضرون فى الميعاد أتريدنى أن أنصرف ؟ » .

وأخذ العمدة أوردن بهذا السؤال وقال « تنصرف ؟ ! .. لا .. لا .. بل ابق » .

وضحك فى رقة ثم استطرد « لعلنى خائف بعض الشىء .. لست خائفا ولكننى مضطرب الأعصاب » ثم قال فى تخاذل « ان أحدا لم يغزنا منذ زمن بعيد » ثم سكت متسمعا ، ومن بعيد كانت تصل اليه أصوات موسيقى عسكرية ، واتجه الجميع الى مصدر هذه الموسيقى وأخذوا يسمعون .

وقالت السيدة « ها هم أولاء قادمون .. أرجو ألا يحاول كثير منهم التجمع هنا دفعة واحدة فالحجرة غير متسعة » .

وقال الدكتور وينتر فى سخرية مريرة « لعل السيدة تفضل قاعة المرايا بقصر ڤرساى » .

وعضت السيدة على شفتها وأخذت تنظر حولها وراحت تقعد الغزاة بذهنها فى مقاعدهم ثم قالت « انها حجرة غاية فى الصغر » .

وارتفع صوت الموسيقى قليلا ثم خفت ، وسمعت طرقة مهذبة على الباب .

— من تراه يكون الطارق الآن يا چوزيف ؟ ان كان من البلدة فاسأله أن يعود فى وقت آخر يا چوزيف فان أمامنا أعمالا كثيرة .

وعادت الطرقة ثانية . وذهب چوزيف الى الباب وفتحه فتحة صغيرة أول الأمر ثم ازدادت اتساعا .. وما لبث أن بدا جسم رمادى ذو خوذة واقفا بين صفين من الجند .

قال الجسم « الكولونيل لانسر يقدم تحياته ، ويلتمس مقابلة سعادتكم » .

وفتح چوزيف الباب على مصراعيه . وتقدم الرجل ذو الخوذة الى الداخل فى خطوات منتظمة وجال بعينيه فى الغرفة ثم اتخذ جانبا وأعلن :

— الكولونيل لانسر .

وتقدم جسم آخر ذو خوذة الى الحجرة ، وقد بدت رتبته على كتفه ، ومن خلفه جاء رجل قصير فى حلة رجل أعمال سوداء .. كان الكولونيل رجلا فى منتصف العمر .. رمادى الشعر ، صلبا ، يبدو عليه الاجهاد .. كانت له أكتاف الجندى المربعة ، وإن كانت نظرته الوامضة بعيدة عن نظرة عامة الجنود الفارغة .

وكان الرجل الضئيل الواقف الى جواره أصلع الرأس ، أحمر الوجه ذا عينين صغيرتين سوداوين وفم دقيق حساس .

خلع الكولونيل لانسر خوذته ، وقال فى انحناءة سريعة « تحيتى لصاحب السعادة » ثم انحنى للسيدة وقال « ولسيدتى » ثم قال للجاويش « أرجوك أن تقفل الباب يا جاويش » .

وأقفل چوزيف الباب بسرعة ونظر الى الجندى وكأنه قد نال نصرا .

وألقى لانسر نظرة متسائلة الى الطبيب فقال العمدة أوردن « انه الدكتور وينتر » فسأل الكولونيل « أموظف هو ؟ » .

— بل طبيب يا سيدى ، واستطيع أن أقول انه مؤرخ البلدة .

وأومأ لانسر محييا وقال « أنا لا أقصد الى اقحام نفسى يا دكتور وينتر ، ولكن عسى أن تفرد لنا صفحة فى مؤرخاتك .. » .

فقال الدكتور وينتر مبتسما « بل لعلها صفحات كثيرة » .

واستدار الكولونيل لانسر بعض الشىء الى رفاقه وقال « أظنك تعرف المستر كوريل » فقال العمدة « چورچ كوريل .. انى أعرفه بالتأكيد .. كيف حالك يا چورچ ؟ » وقطع الدكتور وينتر الحديث محتدا وقال بلهجة رسمية « يا صاحب السعادة ، انه صديقنا چورچ كوريل من هيأ هذه البلدة للاحتلال ، انه چورچ كوريل المفضال من أرسل جنودنا الى

التلال ، وانه عشيرنا چورچ كوريل من أعد قائمة بكل سلاح نارى فى البلدة ، انه صديقنا .. چورچ كوريل .. !

وقال كوريل فى غضب « اننى أعمل فى سبيل الهدف الذى أومن به ، وانه لموقف شريف » .

وتدلى فك العمدة قليلا ، فقد كان مذهولا .. وأخذ نظره يتردد فى يأس بين وينتر وكوريل ثم قال « ليس هذا صحيحا .. ليس هذا صحيحا يا چورچ .. لقد كنت تجلس الى مائدتى وتشرب النبيذ معى ، بل انك أنت من عاونتنى فى تأسيس المستشفى » .

كان ينظر فى صرامة الى كوريل ، فيرد اليه كوريل نظرته فى عداوة وطبق عليهما صمت طويل ، ثم أخذ وجه العمدة يتصلب قسمة قسمة ، حتى اتخذ شكلا رسميا واستدار الى الكولونيل لانسر وقال « لا أريد أن أتكلم أمام هذا السيد » .

فقال كوريل « ان لى الحق أن أظل هنا فأنا جندى مثل الآخرين ، وان كنت لا أرتدى الملابس الرسمية » .

وأعاد العمدة « لا أريد أن أتكلم أمام هذا السيد » .

فقال الكولونيل لانسر « هلا تركتنا الآن يا مستر كوريل »

فقال كوريل « ان لى الحق أن أبقى هنا » فأعاد لانسر جملته محتدا « هلا تركتنا الآن يا مستر كوريل ، أم تراك تريد أن تخرج عن طاعتى »

— لا .. يا سيدى !

فقال الكولونيل لانسر « فأرجوك أن تخرج يا مستر كوريل » .

ونظر كوريل الى العمدة فى غضب ثم استدار وخرج سريعا من الباب الرئيسى . فقال الدكتور وينتر وهو يهتز من الضحك « انه موقف جدير بمؤرخاتى أن تسجله فى فقرة خاصة » .

ونظر الكولونيل لانسر اليه بحدة ولكنه لم يتكلم وفتح الباب الأيمن ، وأطلت منه آنى بوجهها الغاضب وعينيها الحمراوين وشعرها المختلط بالقش ثم قالت « هناك جنود واقفون على البوابة الخلفية يا سيدتى » فقال الكولونيل لانسر « انهم لن يدخلوا ، انها مجرد تنظيمات عسكرية » وقالت السيدة فى برود شديد « ان كنت تريدين ابلاغنا أى شىء فارسلى كلامك مع چوزيف » .

فقال آنى « لم أكن أعرف بوجودهم الا عندما حاولوا الدخول . فقد شموا رائحة القهوة » .

— آنى ..

— أمرك يا سيدتى .

ثم انسحبت من مكانها وقال الكولونيل « هل لى أن أجلس ؟ » ثم تابع كلامه موضحا « فاننا لم ننم منذ أمد بعيد »

وبدا العمدة وكأنه هب من غفوة وغمغم قائلا « نعم بالطبع تفضل بالجلوس » .

ونظر الكولونيل الى السيدة فاتخذت مقعدا ، وارتمى الكولونيل مجهدا على أحد الكراسى وظل العمدة أوردن واقفا شبه حالم .

وتكلم الكولونيل :

— نريد أن نتفاهم بقدر الامكان فأنت ترى يا سيدى ان وجودنا هنا أقرب الى رحلة تجارية منه الى أى شىء آخر ، اننا بحاجة هنا الى منجم الفحم ومصايد الأسماك ، وسنحاول قدر جهدنا أن نؤدى مهمتنا متفادين الاحتكاك .

فقال العمدة « لم تصلنى الأنباء ، فماذا عن البلاد الأخرى »

فقال الكولونيل « لقد احتلت جميعها ، لقد كانت الخطة محكمة » .

— ألم تكن هناك مقاومة فى أى مكان ؟

— فنظر اليه الكولونيل فى اشفاق :

— تمنيت لو لم تكن هناك مقاومة .. الا انه كانت هناك بعض مقاومات لم تفد غير اراقة الدماء ، فقد كانت الخطة محكمة .

وأصر أوردن على سؤاله :

— ولكن كانت هناك مقاومة ؟

— نعم .. ولكن كانت المقاومة حمقا أيما حمق فقد قضى عليها فورا كما حدث هنا .

وأصاب الدكتور وينتر ما أصاب العمدة من اصرار على هذا السؤال فقال « نعم انهم حمقى ولكنهم قاوموا » .

— فأجاب الكولونيل لانسر ثانية :

— قلة من قاوموا وانتهى أمرهم .. فالشعب فى مجموعه هادىء .

فقال الدكتور وينتر « ان الشعب لا يعرف — بعد — ما حدث » .

فقال لانسر « بل انهم أدركوا الموقف ولن يعودوا الى الحمق ثانية » .

وحينئذ تنحنح الكولونيل فانطلق صوته وقال « والآن يا سيدى يجب أن نتكلم فى العمل اننى فعلا متعب جـدا ولكن لابد أن أنظم الأمور قبل أن أنام » ثم انحنى الى الأمام فى جلسته وقال « اننى أقرب الى مهندس منى الى عسكرى ، وكل هذا العمل أقرب الى التصميم الهندسى منه الى فتح حربى ، يجب أن يستخرج الفحم من الأرض ويحمل على المراكب ، لدينا الخبراء ولكن على الأهالى أن يواصلوا عملهم فى المنجم .. أهذا واضح ؟ .. فما نحب أن نلجأ الى العنف » .

فقال أوردن « نعم .. انه واضح تماما ، ولكن اذا فرضنا ان الأهالى لم ترغب فى العمل بالمنجم » .

فقال الكولونيل « آمل أن يرغبوا فى العمل لأنهم لابد أن يعملوا ، ولابد أن نحصل على الفحم » .

— فاذا امتنعوا ؟

— لابد لهم أن يعملوا ، فهم قوم يحبون النظام ، ولا يسعون الى المتاعب .

وانتظر الكولونيل اجابة من العمدة فلم يجب . فسأله الكولونيل « ألا ترى هذا الرأى يا سيدى » فراح العمدة يدير سلسلة مفاتيحه على اصبعه وقال « لا أعرف يا سيدى ، فهم يحبون النظام الذى تفرضه عليهم حكومتهم هم ، ولا أعرف الى ما سيصيرون فى ظل حكومتك ، لقد أنشأنا حكومتنا منذ أربعمائة سنة ، وهذه — كما ترى — تجربة جديدة علينا » .

فقال الكولونيل بسرعة « اننا نعرف ذلك ولذلك فاننا سنبقى على حكومتك ، وستظل العمدة ، تصدر عنك الأوامر ، ويوقع الجزاء بأمرك ، وتمنح المكافآت بمشيئتك .. وهكذا لن يثير الأهالى اضطرابا » .

ونظر العمدة أوردن الى الدكتور وينتر وقال له « فيم تفكر ؟ » .

فقال الدكتور وينتر « لا أدرى ، فانى مشوق الى رؤية ما سيحدث ، فانى أتوقع اضطرابا فقد يكون القوم صعب مراسهم » .

فقال العمدة أوردن « وأنا أيضا لا أدرى » والتفت الى الكولونيل قائلا « سيدى ، اننى فرد من هؤلاء القوم ، ولا أعرف بعد ما سيفعلون ، ولعلك أنت تعرف ، بل لعل الأمر يختلف عما تعرفه أنت أو ما نعرفه نحن ، فبعض الناس يقبلون القواد المفروضين عليهم ويطيعونهم ، ولكن قومى انتخبونى ، انهم بيدهم جعلوا منى عمدتهم ويستطيعون بيدهم أن يزيلونى عن منصبى ، ولعلهم يفعلون ذلك اذا ظنوا اننى أحالفكم .. الواقع اننى لا أدرى ما سيفعلون » .

وقال الكولونيل « ان أنت أبقيت عليهم هدوءهم كان ذلك لصالحهم » .

— لصالحهم ! ؟

— نعم .. لصالحهم ، ان واجبك أن تجنبهم السوء .. ان هم ثاروا تعرضوا للخطر ، لابد أن نحصل على الفحم ، لقد أصدر قوادنا أوامرهم أن نحصل عليه ، ولم يحددوا الوسيلة ، أما أنت فعليك أن تحمى قومك ، عليك أن تجعلهم يؤدوا عملهم حتى يحافظوا على سلامتهم .

وسأل العمدة أوردن :

— فاذا لم يشاءوا المحافظة على سلامتهم ؟

— اذن فعليك أن تدبر أمرهم .

فقال أوردن فى قليل من الزهو « ان قومى ليسوا بحاجة الى أحد ليدبر أمرهم ، لعلهم يختلفون عن قومك ، انى مضطرب الفكر ولكنى واثق مما أقول » .

وحينئذ دخل چوزيف مسرعا ووقف منحنيا الى الأمام متهيئا للانفجار فى الحديث فقالت السيدة « ماذا بك يا چوزيف ؟ احضر علبة السجائر الفضية » فقال چوزيف « عفوا يا سيدتى عفوا يا صاحب السعادة .. » فقال العمدة « ماذا تريد ؟ » فقال چوزيف « انها آنى يا سيدى قد اعتراها الغضب » فقالت السيدة « ما خطبكم ؟ » .

— آنى لا تريد الجند أن يقفوا عند البوابة الخلفية .

فسأل الكولونيل « أيثيرون المضايقات ؟ » .

فقال چوزيف « انهم ينظرون من خلال الباب الى آنى وهى لا تطيق ذلك » .

فقال الكولونيل « انهم ينفذون الأوامر ولا يأذون أحدا » .

فقال چوزيف « ولكن آنى تكره أن يحملق أحدا اليها »

فقالت السيدة « مر آنى أن تضبط أعصابها » فقال چوزيف « أمرك يا سيدتى » ثم خرج .

وقال الكولونيل وقد أرخى جفنيه فى اعياء « هناك شيء آخر يا صاحب السعادة .. ترى أيمكن أن أقيم هنا مع أركان حربى ؟ » .

وفكر العمدة أوردن لحظة وقال « ان المكان ضيق .. وهناك أمكنة أكثر اتساعا وتوفيرا للراحة » .

وعندئذ عاد چوزيف بصندوق السجائر الفضى وفتحه وقدمه الى الكولونيل ، وحين تناول الكولونيل سيجارة أشعلها له چوزيف فى الحال فجذب الكولونيل أنفاسها الى عميق صدره ثم قال « ليس هذا ما نبحث عنه ولكن تبين لنا انه اذا أقام أركان الحرب تحت سقف السلطات المحلية فان هذا يؤدى الى مزيد من الهدوء » .

فقال أوردن « أنت تقصد ان هذا يوحى الى الشعب ان ثمة تعاونا بيننا » .

— نعم أعتقد هذا .

ونظر العمدة أوردن فى يأس الى الدكتور وينتر فلم يستطع وينتر أن يعينه بغير ابتسامة مريرة فقال أوردن فى رقة « أيسمح لى برفض هذا الشرف ؟ » .

فقال الكولونيل « لا .. مع الأسف فانها أوامر القيادة » .

فقال أوردن « ولكن الشعب لن يرضى عن هذا » .

— دائما الشعب .. الشعب أعزل ولا يملك القول .

وهز العمدة أوردن رأسه قائلا « أنت لا تعرفه يا سيدى » .

وجاء صوت سيدة حانقة عبر المدخل وتبعه صوت ضربة وصرخة رجل ، وجاء چوزيف مهرولا « انها ترميهم بماء مغلى ، انها فى غاية الغضب » .

وبلغتهم أصوات أوامر تصدر وأقدام تنتظم ، فقام الكولونيل لانسر متثاقلا وقال « أليس لكم سيطرة على خدمكم يا سيدى ؟ » .

فابتسم العمدة قائلا « قليل من السيطرة ، فانها طباخة ماهرة حين تطيب نفسها .. » .

ثم سأل چوزيف « أأصيب أحد بأذى ؟ » .

— كان الماء يغلى يا سيدى .

فقال الكولونيل لانسر « اننا لا نريد الا انفاذ مهمتنا ، انها مهمة هندسية وعليك أن تلزم طاهيتك النظام » فقال أوردن « لا أستطيع ، فاذا فعلت تركتنا » .

— هذه حالة طوارىء ولا تستطيع أن تتركنا .

فقال الدكتور وينتر « اذن فستقذف بالماء المغلى » ؟

وفتح الباب ووقف جندى عند المدخل وقال « هل أقبض على هذه المرأة يا سيدى ؟ » فسأل لانسر « هل أصيب أحد بأذى ؟ » .

— نعم يا سيدى ، حرقت أحدنا وعضت آخر ، ونحن نمسك بها يا سيدى .

ونظر لانسر فى عجز وقال « اطلقوا سراحها واخرجوا بعيدا عن البوابة » .

— أمرك يا سيدى .

وانقفل الباب وراء الجندى .

فقال لانسر « كنت أستطيع رميها بالرصاص وكنت أستطيع حبسها » .

فقال أوردن « وعندئذ نصبح بغير طباخة » .

فقال الكولونيل « اسمع .. لقد أمرنا أن نطوع قومك »

فقالت السيدة « معذرة يا سيدى فانى ذاهبة لأرى ان كان الجنود قد أذوا آنى » .

وحينئذ وقف لانسر « لقد أخبرتك اننى متعب يا سيدى ولابد لى أن أصيب بعض النوم فأرجوك أن تعاونا للصالح العام » .

ولما لم يجب العمدة أوردن أعاد لانسر قوله « للصالح العام .. أرجوك » فقال أوردن « انها بلدة صغيرة ، ولا أستبين طريقى ، فالقوم فى حيرة وكذلك أنا » .

— ولكن هل ستحاول التعاون معنا .

فهز أوردن رأسه قائلا « لا أدرى .. حين تجمع البلدة أمرها على ما ستفعله فلعلنى حينئذ أفعل » .

— ولكنك السلطة .

فابتسم أوردن قائلا « لن تصدق ما سأقوله ولكنه الحق ، فالبلدة هى السلطة ، لا أعرف كيف ولا لماذا ، ولكن هكذا الوضع ، وهكذا لا نستطيع تصريف الأمور فى نفس السرعة التى تستطيعونها أنتم ، ولكن عندما نحدد موقفنا نستطيع أن نوحد جهودنا على العمل ، أما الآن فانى فى حيرة ولا أستطيع تحديد موقفى » .

فقال لانسر فى اعياء « آمل أن تتمكن من التعاون فان هذا سييسر الأمور للجميع ، أرجو أن تكون محل ثقتنا ، فما أحب أن الجأ الى وسائلنا العسكرية فى حفظ النظام » .

وكان العمدة أوردن صامتا فأعاد لانسر قوله « أرجو أن تكون محل ثقتنا » فوضع أوردن اصبعه فى أذنه ورج يده قائلا « لا أدرى » .

وعندئذ دخلت السيدة من الباب قائلة « آنى فائرة ، انها بالغرفة المجاورة تكلم كريستين ، وكريستين غاضبة أيضا » .

وقال العمدة « لعل كريستين أكثر حذقا للطهى من آنى »

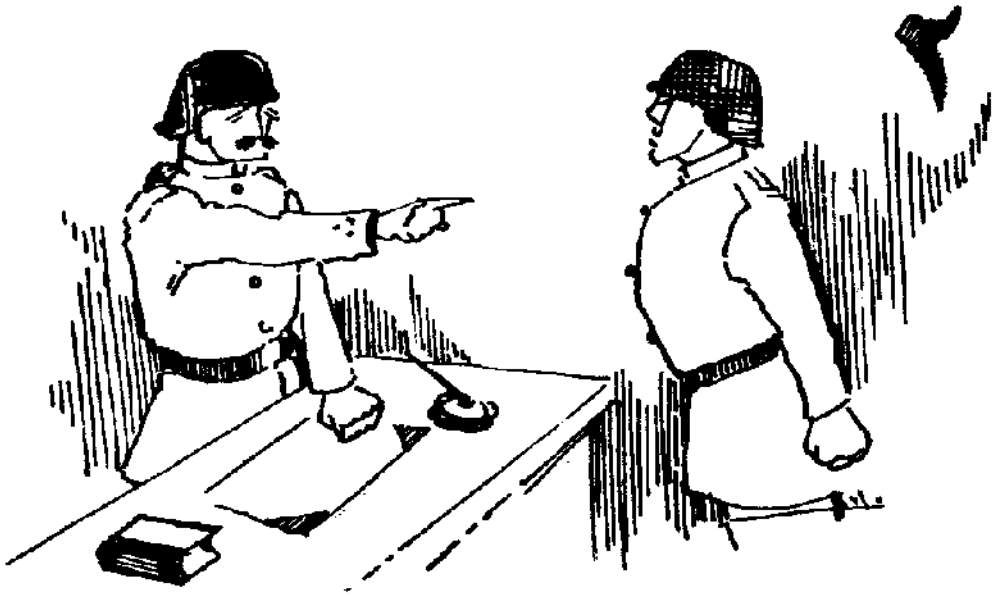

فى الطابق الأعلى من قصر العمودية الصغير اتخذ أركان حرب الكولونيل لانسر مقر قيادتهم .. كان هناك خمسة منهم بجانب الكولونيل ..

فالماچور هنتر رجل ضئيل ولوع بلغة الأرقام .. ضئيل كوحدة مكملة لغيرها ، وهو ينظر الى الآخرين كوحدات مكملة أو كأشياء غير خليقة بالحياة . والماچور هنتر مهندس مدنى ، ولولا حالة الحرب لما فكر أحد فى أن يعهد اليه بقيادة الرجال ، فالماچور هنتر يوقف رجاله فى صفوف كما لو كانت أرقاما ثم هو يجرى عليهم عمليات الجمع والطرح والضرب فهو رجل حساب أكثر منه رجل رياضة فلا سبيل للمرح أو الموسيقى أو لروح التصوف التى تنطوى عليها الرياضيات العليا ، لا سبيل لشىء من هذا أن يجد طريقه الى عقله .

وفى رأيه ان الناس قد يختلفون فيما بينهم ولكن هذا الاختلاف لا يكون الا فى أطوالهم أو أوزانهم أو ألوانهم

كما يختلف الرقم ٦ عن الرقم ٨ ، ولقد تزوج مرات ولكنه أبدا لم يعرف لماذا تثور أعصاب زوجاته قبل أن يتركنه .

أما الكابتن بنتيك فقد كان رجل عائلة ، محبا للكلاب والأطفال وأعياد الميلاد كانت رتبته أقل من سنه ، ولكن افتقاره العجيب للطموح قعد به فى هذه الرتبة ، وقد كان قبل الخدمة معجبا أشد الاعجاب بسادة الريف الانجليزى ، فهو يلبس ملابس الانجليز ، ويقتنى الانجليزى من الكلاب ، ويدخن فى غليون انجليزى تبغا يؤلف له خصيصا ويرسل اليه من لندن ، وهو مشترك فى المجلات التى تبحث فى شئون الريف وتتغنى بامجاد فلاحة البساتين .

وقد كان الكابتن بنتيك يقضى أجازاته جميعها فى مقاطعة ساسكس الانجليزية وهو حريص على أن يعتقد الناس فى بودابست أو باريس انه رجل انجليزى .

وغيرت الحرب هذا جميعه فى الظاهر ، ولكنه كان قد دخن غليونه طويلا ، وصاحب عصاه طويلا حتى لقد أصبح من العسير عليه أن يتخلى عنهما دفعة واحدة ، وفى مرة منذ خمس سنوات كان قد كتب رسالة الى التيمس عن جفاف الحشائش فى ميدلاند ووقعها باسم ادموند تويتشيل المحترم ، والأهم من هذا ان التيمس نشرت الرسالة .

وان كان الكابتن بنتيك كبير السن بالنسبة لرتبته فان الكابتن لوفت كان صغيرا على هذه الرتبة ، وقد كان الكابتن

لوفت ضاربا فى « الكابتنية » [1] الى أقصى حد يتصوره الانسان فقد كان يحيا فى الكابتنيه ويتنفسها ، حتى ان حياته لم تشهد لحظة غير حربية ، فقد كان ذا طموح دافع يرتفع به فى مدارج الرتب ، فكان يرتفع كما ترتفع القشدة على سطح اللبن ، وكان يضرب أحد كعبيه بالأخرى فى نفس الدقة التى يأتى بها الراقص هذه الحركة ، وكان يعرف ألوان الآداب الحربية جميعها ، وكان يصر على التزامها جميعا ، وكان الچنرالات يخشونه ، لأنه يعرف عن مسلك الجندى أكثر مما يعرفون . وكان الكابتن لوفت يعتقد ويؤمن ان الجندى هو أرقى مدارج التطور الحيوانى فكان اذا حدث وفكر فى الله تخيله كما لو كان جنرالا عجوزا محملا بالرتب والألقاب والنياشين ، اعتزل الخدمة بعد أن سرى الشيب فى رأسه ، فهو يحيا بين ذكريات مواقعه ، ويضع طاقات الزهر على قبور صغار ضباطه مرات كثيرة خلال العام وكان الكابتن لوفت يعتقد ان جميع النساء يقعن فى هوى الرداء الرسمى ، ولا يمكن له أن يتصور غير هذا .

انه اذا سارت الأحداث سيرا طبيعيا فقد يحصل الكابتن لوفت على رتبة فريق وهو فى عامه الأربعين ، ولتنشرن صورته يومذاك فى الصحف المصورة وقد حفت به على الجانبين سيدات فارعات الطول ، شاحبات الوجوه ، ذوات ملامح مسترجلة .

---

(١) اشتقاق مصدرى من رتبة كابتن .

أمـــا الملازمان پراكل وتوندر فقـــد كانا طالبين ما زالا بالجامعة ، قذرى الأنوف دارسين للنظريات السياسية العصرية مؤمنين ان النظام الجديد قد أقامه عبقرى فهو من الضخامة بحيث لا يكلفان نفسيهما عناء البحث فى نتائجه .

كانا شابين عاطفيين ، سريعة دموعهما ، قريب غضبهما ، كان الملازم پراكل يحمل خصلة من الشعر مربوطة فى قطعة من الحرير الأزرق وكان يضعها داخل ساعته وكثيرا ما كان الشعر يفلت من قطعة الحرير ، ويعطل لولب الساعة ، وهكذا اضطر الى اتخاذ ساعة يد غير تلك ليعرف بها الوقت . وقد كان پراكل شابا مرحا ماهرا فى الرقص ولكنه مع ذلك كان يستطيع أن يعبس وجهه مثل الزعيم ، ويكفهر مثـــل الزعيم أيضا ، وكان يمقت الفن الرخيص ولهذا فقد أتلف عديدا من اللوحات بيده ، وكان أحيـــانا يرسم أصدقاءه رســـومات تخطيطية وهم جالسون معه فى الكباريهات ، وقد كانت هذه الرسوم متقنة لدرجة ان كثيرا ما قيل له انه كان من الممكن أن يصبح فنانا . وقد كان لپراكل أخوات شقراوات عديدات ، وقد كان فخورا بهن كل الفخر ، حتى انه أقام مرة ضجة كبيرة عندما خيل اليه ان اهانة مسّتهن ، أما الأخوات فقد جزعن لهذه الضجة خشية أن تثبت الاهانة عليهن وقد كان من اليسير اثباتها . وكان الملازم پراكل يكاد يقضى أوقات فراغه كلها حالما بأن ينال أخت الملازم توندر الشقراء وقد كانت فتاة طروبا تحب أن ينالها من يكبرونها من الرجال على ألا يشعثوا شعرها كما فعل بها الملازم پراكل .

وكان الملازم توندر شاعرا .. شاعرا مريرا يحلم بالحب المثالى الكامل يقع بين الفتيان الأثرياء والفتيات الفقيرات ، وكان توندر أسود الشعر خياليا ، له من الرؤى بقدر ما له من الخبرة . وكان أحيانا يتكلم بالشعر المرسل هامسا به الى سمراوات يرسمهن له الخيال ، وكان يتوق الى الموت على أرض المعركة ويتخيل أبويه يبكيانه فى مؤخرة الجيوش ، بينما وقف الزعيم شجاعا وان كان حزينا فى حضرة الشباب الراحل . كثيرا ما كان يتصور موته ، وقد انسكبت عليه أضواء الشمس الغاربة ، ولمعت على الأسلحة المتكسرة حواليه وقد وقف حوله رجال صامتون مطرقو الرؤوس .

هؤلاء هم رجال أركان الحرب ، كل منهم يلعب الحرب كما يلعب الأطفال لعبة المطاردة . فالماجور هنتر يفكر فى الحرب كعملية حسابية عليه أن يؤديها ليعود الى بيته . والكابتن لوفت يفكر فيها على انها المستقبل القويم لشاب ربى التربية القويمة . أما الملازمان پراكل وتوندر فقد كانا يأخذانها على انها حلم لا حقيقة فيه ، وهكذا لعبوا حربهم تلك بأسلحة ممتازة وخطط محكمة ضد أعداء بلا سلاح ولا خطط فلم يخسروا موقعة ، ولم يعانوا الا القليل . ولو انهم تعرضوا لضغط الظروف لجبنوا أو مستهم الشجاعة ، شأنهم شأن غيرهم من الناس . فلم يكن أحد من بينهم يعرف حقيقة الحرب الا الكولونيل لانسر .

وقد أقام لانسر قبل ذلك بعشرين عاما فى بلچيكا وفرنسا وهو يحاول ألا يفكر فيما تعلمه اذ ذاك من ان الحرب خيانة وكراهية وتكديس لغير الأكفاء من الچنرالات وانها تعذيب وقتل ، ومرض ، ومتاعب وتظل كذلك حتى تنتهى دون أن تغير فى العالم الا ما تستحدث فيه من متاعب وكراهية . كان لانسر يقول لنفسه انه جندى تصدر اليه الأوامر لينفذها ، ولا يتوقع أحد منه أن يناقش هذه الأوامر أو يفكر فيها . فما عليه بشأنها الا أن ينفذها ، وهو يحاول جهده أن يبعد عن ذهنه ذكرياته القاتمة عن الحرب الأولى وأن يزيل عنه تلك الثقة من أن هذه الحرب ستكون شبيهة تماما بسابقتها فهو لا يزال يقول لنفسه « ستكون هذه الحرب شيئا مختلفا .. مختلفا كل الاختلاف » يقولها خمسين مرة فى اليوم .

عندما تسير الجيوش ، أو تحتشد الجماهير ، أو يقيمون المباريات لكرة القدم أو عندما تنشب الحرب ، عندما يحدث شىء من هذا تضطرب المعايير الثابتة ، فتضبح الحقائق أوهاما ويغشى العقل ضباب ، فالتوتر ، والاضطراب ؛ والاعياء كل هذه الأحاسيس تطالعك من حلم واحد هائل أغبر اللون . وهكذا حينما تنتهى الحرب يصبح من العسير أن نذكر ما كنا نحسه حين نقتل الرجال أو نأمر بهم ليقتلوا ، وحينئذ يصف لك القوم الذين لم يشهدوا الحرب ما كنت تحسه أنت فتجيبهم أنت بلا وعى « نعم .. أظن ان الأمر كان كذلك » .

اتخذت هيئة أركان الحرب هذه ثلاث حجرات من الطابق الأعلى من قصر العمدة ، فوضعوا فى غرف النوم سررهم الصغيرة وأغطيتهم وحاجياتهم وأقاموا فى الغرفة المجاورة الواقعة فوق غرفة الاستقبال فى الطابق الأسفل مباشرة شيئا يشبه المنتدى ، أو هو يشبه المنتدى غير المريح ، فجعلوا فيه بضعة كراسى ونضد ، وفيه أخذوا يكتبون الخطابات ويقرأونها ويتحدثون ويشربون القهوة ، وينسقون الخطط ، ويلتمسون الراحة ، وعلى الجدران بين النوافذ كانت هناك صور للأبقار والبحيرات والبيوت الريفية الصغيرة . ومن الشباك كان يمكنهم أن يشرفوا على البلدة جميعا حتى ساحل البحر ، كما كان يمكنهم أن يرقبوا أحواض السفن وقد رست بها حاملات الفحم تعبأ ثم تأخذ سبيلها الى عرض البحر ، وكان يمكنهم أن يروا طرق البلدة الصغيرة وهى تتلوى من الميدان حتى تصل الى الواجهة البحرية ، وكان يمكنهم أن يروا قوارب الصيد رابضة فى الخليج وقد طوى منها الشراع وكان يمكنهم أيضا أن يشموا من الشباك نفسه رائحة السمك المجفف على الشاطىء .

وفى وسط الغرفة كانت تقوم منضدة كبيرة يجلس الى جوارها الماجور هنتر وقد وضع على فخذيه طرف لوحة الرسم وأسند الطرف الآخر على المنضدة ، وكان يستعين بمسطرة هندسية ومثلث على رسم تصميم لخط حديدى

جانبى جديد . وكانت لوحة الرسم قلقة فى مكانها هذا ، وكان الماچور هنتر غاضبا من قلقها ، فالتفت الى ورائه مناديا « پراكل » ثم « يا ملازم پراكل » .

وفتح باب غرفة النوم وخرج الملازم وقد غطى نصف وجهه بالصابون وأمسك بفرشاة الحلاقة وقال « نعم ؟ » .

وأزاح الماچور هنتر لوحة الرسم فى عنف وقال « ألم يأت حامل اللوحة مع الأمتعة » فقال پراكل « لا أعرف يا سيدى فأنا لم أبحث عنه » .

— حسنا فهل لك أن تبحث عنه الآن .. فانه يكفينى ما فى خفوت الضوء من مضايقة ولابد لى أن أرسم هـذا التصميم ثانية قبل أن أحبره .

فقال پراكل « سأبحث عنه بمجرد انتهائى من الحلاقة » فقال هنتر فى عصبية « ان التصميم أكثر أهمية من مظهرك ، أنظر ان كانت هناك حقيبة من القماش تشبه حقيبة الجولف تحت كومة الأمتعة » .

واختفى پراكل فى غرفة النوم وفتح الباب الأيمن ودخل الكابتن لوفت مرتديا خوذته وقد علق على كتفه نظارة ميدان وسلاحا فى حزامه ، وتدلت عليه بضعة من الأكياس الجلدية وما ان دخل حتى أخذ يخلع معداته تلك وقال « هل تعلم ان بنتيك مجنون ، قد كان خارجا فى نوبته وقد ارتدى قبعة عادية وراح يسير بها فى الشارع » .

ووضع لوفت نظارة الميدان على النضد وخلع خوذته ثم اتبعها بالكمامة ، ثم أخذ كوم صغير من الحاجيات يعلو على النضـــد .

فقال هنتر « لا تترك هذه النفايات على النضد فانني سأعمل عليها .. وما له لا يلبس قبعة عادية ، فاننا لم نلق أية متاعب ، لقد أصبحت أضيق بهذه الخوذات المعدنية ، فهى ثقيلة وتعوق النظر » .

فقال لوفت « ان التخلى عنها عادة سيئة تضر بنا أمام القوم هنا ، يجب أن نحافظ على سمتنا العسكرى ونظل على اليقظة الدائمة ولا نتخلى عنها أبدا ، والا استدعينا المتاعب » .

فسأله هنتر « وما دعاك الى هذا الظن » .

واعتدل لوفت فى جلسته قليلا وقد ضم فمه فى ثقة .. هذه الثقة التى يتسم بها حديثة حتى ليخيل لمن يحادثه أنه سيهم بضربه وشيكا .. قال « انه ليس مجرد ظن ، لقد كنت ألخص النشرة العسكرية رقم ١٢ وهى عن مسلك الجندى فى البلاد المحتلة ، وهى تعالج هذا الموضوع فى دقة رائعة ، وقد بدأ مؤلفها بقوله (انك) ثم قال ان كل انسان يجب أن يقرأ هذا الكتيب فى عناية تامة » .

فقال هنتر « انى أسائل ان كان الرجل الذى كتبه قد وجد

مرة فى بلدة محتلة ، فان هؤلاء القوم مسالمون للغاية ، ويبدو أنهم قوم طيبون ، مطيعون » .

وخرج پراكل من الباب ووجهه ما يزال مغطى بالصابون وكان يحمل حقيبة من القماش البنى اللون ، ومن خلفه جاء الملازم توندر ، سأل پراكل « أهذه هى ؟ » .

— نعم ، فهل لك أن تفرغها وتقيم الحامل .

وأخذ پراكل وتوندر يعملان فى الحامل المطوى ويختبرانه ويضعانه بجانب هنتر . وثبت الماجور لوحته عليه وربطها من اليمين والشمال ، ثم قبع خلفه أخيرا .

وقال الكابتن لوفت « أتعرف أيها الملازم أن الصابون على وجهك ؟ » فقال پراكل « نعم يا سيدى .. لقد كنت أحلق حين طلب الى الماجور هنتر أن أحضر الحامل » فقال لوفت ، « حسنا ، يجمل بك اذن أن تزيل الصابون فقد يراك الكولونيل » .

— انه لا يبالى ، فهو لا يهتم بمثل هذه الأمور .

وكان توندر ينظر من وراء أكتاف هنتر وهو يعمل .

وقال لوفت « لعله لا يهتم ولكن هذا عمل غير لائق بالجندى ، وأخذ پراكل منديلا ومسح الصابون عن وجهه .

وأشار توندر الى رسم صغير فى الزاوية من لوحة الماجور.

— انها قنطرة أنيقة يا ماجور ، ولكن فى أى مكان من العالم ستقيمها .

ونظر هنتر الى أسفل اللوحة ثم رفع رأسه الى توندر .

— هيه ؟ آه .. انها ليست قنطرة سنقيمها ، ان المكان الأعلى من اللوحة هو المخصص للأعمال الرسمية .

— فماذا ستفعل بالقنطرة اذن ؟

وبدا على هنتر بعض الارتباك .

— حسنا ، لعلك تعرف أن هناك نموذجا لخط حديدى فى الفناء الخلفى لمنزلى ، وقد كنت بسبيل شق قناة صغيرة تعترضه ، وقد امتد الخط الى حيث شققت القناة ولكننى أبدا لم أستطع اقامة القنطرة ، وظننت اننى ربما استطعت أن أرسمها وأنا بعيد عن المنزل .

وأخرج الملازم پراكل من جيبه صورة فوتوغرافية مطوية ونشرها ورفعها وراح ينظر فيها لقد كانت صورة فتاة ، صورة كاملة بها سيقان الفتاة ورداؤها ورموش عينيها ، وقد كانت فتاة شقراء فائرة الانوثة ترتدى جوارب سوداء شفافة وصديريا منسابا الى الأسفل ، وكانت هذه الشقراء العجيبة تحدق فى مروحة من الدنتيلا السوداء . رفع پراكل الصورة الى أعلى وقال « أليست رائعة » .

ونظر الملازم توندر الى الصورة نظرة ناقدة وقال « أنها لا تعجبنى » .

— وما الذى لا يعجبك فيها ؟ ! .

فقال توندر « انها لا تعجبنى ، لماذا تبقى على صورتها » .

فقال براكل « لأنها تعجبنى ، وأراهن على أنها تعجبك أنت أيضا » .

فقال توندر « بل ، لا » فقال براكل « أتعنى انك لا ترضى بموعد معها اذا تمكنت منه » .

فقال توندر « نعم » فقال براكل « فأنت مجنون » .

ثم اتجه الى احد الستر وقال « سأعلقها هنا وأتيح لك أن تتأملها قليلا » ثم علق الصورة بالستارة .

وكان الكابتن لوفت يجمع حاجياته فى ذراعيه وهو يقول « لا أخالها تبدو جميلة هنا يا حضرة الملازم ، يحسن بك أن تنزلها ، فانها لا تبعث تأثيرا طيبا فى المواطنين » .

ورفع هنتر عينيه عن لوحته « عم تتكلم ؟ » ثم نظر الى الصورة « من هذه » فقال براكل « انها ممثلة » ونظر هنتر اليها بانعام وقال « آه .. هل تعرفها ؟ » .

فقال توندر « انها أفاقة » فقال هنتر « هيه ... ! فأنت تعرفها اذن » .

وقال پراكل وقد ثبت ناظريه على توندر « والا فكيف عرفت أنها أفاقة » فقال توندر « ان لها مظهر الأفاقات » .

— فهل تعرفها ؟

— لا .. ولا أريد أن أعرفها .

وعاد پراكل يقول « اذن فكيف عرفت .. » ولكن لوفت قاطعه قائلا « يحسن بك أن تنزل الصورة .. ضعها فوق سريرك اذا شئت ، فان هذه الحجرة شبه رسمية » .

ونظر براكل اليه فى تمرد وهم بحديث منعه عنه الكابتن لوفت بقوله « انه أمر أيها الملازم » وهكذا طوى پراكل المسكين ورقته وأودعها جيبه وحاول فى مرح أن يغير موضوع الحديث فقال « ان هذه المدينة تضم بضعا من الفتيات الجميلات ، وقد عزمت — حين تستقر الأمور ويسلس قيادها — أن أتعرف على بعضهن » .

وقال لوفت « يحسن بك أن تقرأ النشرة العسكرية رقم ١٢ فان بها فصلا عن الناحية الجنسية » ثم خرج يحمل منظاره ومعداته وقال الملازم توندر وهو ما زال واقفا على كتفى هنتر « يا له من نشاط .. ان سيارات الفحم تخترق المناجم الى السفينة » .

وترك هنتر عمله فى بطء وقال « علينا أن نزيد هذا

النشاط .. فانه لابد الا تتوقف عملية شحن هذا الفحم أبدا .. وانه عمل كبير ولكم أحمد الله على أن القـوم هنا هادئون ومعقولون » .

وعاد لوفت الى الغرفة بغير معـداته ووقف الى النافذة ينظر تجاه الميناء ومنجم الفحم ثم قال «انهم هادئون ومعقولون لأننا هادئون ومعقولون ، واننا نستحق التقدير من أجل هذا ، ولهذا تجدنى مصرا على استمرار العملية فهى تسير فى دقة بالغـة » .

وفتح الباب وبدا الكولونيل لانسر ، وما أن دخل حتى خلع معطفه ، وحياه ضباطه التحية العسكرية . قال لانسر « هل لك أن تذهب الى بنتيك لتحل محله فى نوبته يا كابتن لوفت ، فهو على غير ما يرام ويقول انه مصاب بدوار » .

وقال لوفت « أمرك يا سيدى .. ولكن هل لى أن أوضح يا سيدى أننى تركت العمل الآن فقط» وتفحصه لانسر بأنعام ثم قال « أرجو الا يضايقك الذهاب يا كابتن » .

— انه لا يضايقنى مطلقا يا سيدى وانما أردت فقط أن أوضح الأمر ليذكر عند التقرير .

وراح لانسر يقهقه فى استرخاء وقال «انك تحب أن تذكر فى التقارير .. أليس كذلك » .

— ان هذا لا يضر يا سيدى .

وتابع لانسر حديثه قائلا ، « وحينما تذكر مرات كافية ستكون هناك أوسمة صغيرة على صدرك » .

— انها درجات الصعود فى الحياة العسكرية يا سيدى .

وتنهد لانسر قائلا « نعم أعتقد أنها كذلك ، ولكن لن تبقى هذه الأوسمة فى ذكريات حياتك العسكرية فيما بعد يا كابتن » .

وسأل لوفت « ماذا تعنى يا سيدى ؟ » .

— ربما تدرك ما أعنيه فيما بعد .

واستعاد الكابتن لوفت معداته فى سرعة «نعم يا سيدى» ثم خرج وأخذت خطواته تصك درجات السلم الخشبية وراح لانسر يرقبه وكأنه يتسلى بمنظره ثم قال فى هدوء « هكذا يخرج جندى أصيل » ورفع هنتر ناظريه وحرك قلمه قائلا « أو حمار أصيل » فقال لانسر « لا ، فانه يعتنق الجندية كما يعتنق كثير من الناس مذهبهم السياسى ، وسوف ينال منصبا فى القيادة فى وقت قصير ، وحينئذ سينظر الى الحرب من أعلى وهكذا سيظل على حبه لها » وقال الملازم پراكل « وترى متى تنتهى الحرب يا سيدى » .

— تنتهى ؟! تنتهى ؟ ماذا تعنى .

وتابع پراكل حديثه « متى ننتصر ؟ » وهز لانسر رأسه قائلا « آه .. أما أنا فلا أدرى ، فما زال العدو يملأ الدنيا » فقال براكل « ولكننا سنبتلعهم » فقال لانسر « نعم » .

— ألا يمكننا أن نفعل ذلك ؟

— نعم .. نعم .. فاننا دائما نبتلعهم .

فقال پراكل فى لهفة « والآن وقد اقتربنا من عيد الميلاد أما تظنهم سيمنحوننا بعض الأجازات ؟ » فقال لانسر « لا أدرى ، فمثل هذه الأوامر لابد أن تصدر من السلطات الحاكمة .. أتريد أن تكون ببيتك فى عيد الميلاد ؟! » .

— حسنا ، أظننى أريد ذلك .

— لعلك ستكون هناك .. لعلك تذهب .

وقال الملازم توندر « ان احتلالنا لهذه البلاد لن ينتهى بنهاية الحرب يا سيدى .. أليس كذلك » فقال لانسر « لا أدرى ، لماذا تسأل ؟ » فقال توندر « انها بلاد جميلة وشعبها طيب ، ان رجالنا .. أقصد بعض رجالنا سيتوطنون هنا » وقال لانسر فى مداعبة «لعلك وقعت على مكان يعجبك؟» فقال توندر « حسنا ، ان ثمة مزارعا جميلة هنا ، فلو أن أربعا

منها أو خمسا ضمت الى بعضها لتهيأ مكان جميل للمقام فيما أعتقد » وسأله لانسر « أليست لأسرتك مزارع » .

— لا يا سيدى لم يعد لنا مزارع فقد أتى عليها التضخم المـــالى .

وضاق لانسر بهذا الحديث الصبيانى فقال « على كل ما زالت أمامنا حرب نخوضها ، وما زال أمامنا فحم ننقله ، أتظننا باقين هنا حتى تنتهى الحرب وحتى نبنى هذه الدولة مثل هذه الأوامر تصدر من أعلى ، ويستطيع الكابتن لوفت أن يحدثك فى هذا » ثم غير طريقة حديثه وقال « ان الصلب الذى تطلبه سيكون هنا غدا يا هنتر ، وتستطيع جرارتك أن تبدأ العمل فى الأسبوع المقبل » وحينئذ سمع طرق على الباب وأدخل أحد الحراس رأسه وقال « المستر كوريل يريد لقاءك ياسيدى » فقال الكولونيل « أدخله » ثم قال للآخرين « هذا هو الذى قام بالأعمال التمهيدية هنا ، وأظننا سنلقى منـــه بعض المتاعب » وسأل تو ندر « هل أحسن القيام بعمله ؟ » .

— نعم ، ولن يكون محبوبا من الشعب هنـــا ، وانى أتساءل ان كان سينال مودتنا .

فقال توندر « انه جدير بتقديرنا فعلا » فقال لانسر «نعم، ولا تحسب أنه لن يطالب بهذا التقدير » .

ودخل كوريل يفرك يديه ، وقد ارتسمت على وجهه سمات المودة وحسن النية . وكان لا يزال مرتديا حلته السوداء وان كان قد زاد عليها رباطا أبيض على رأسه ألصقه بشعره شريط فى شكل صليب ، وتقدم الى وسط الحجرة وقال « صباح الخير يا سيدى الكولونيل ، كان على أن أحضر بالأمس بعد ما حدث من متاعب فى الطابق الأسفل ولكننى أعرف الى أى مدى أنت مشغول » فقال الكولونيل « صباح الخير » ومع حركة دائرية من يديه قال « هؤلاء هم أركان حربى يا مستر كوريل » فقال كوريل « انهم شبان ممتازون ، لقد قاموا بعمل جليل .. حسنا فقد حاولت أن أمهد لهم .. حسنا .. »

وعاد هنتر ينظر الى لوحته ثم أخرج قلم تحبير وغمسه فى الدواة وراح يحبر رسمه وقال لانسر « لقد أحسنت عملك تماما ، ولكننى كنت أتمنى لو لم تقتل هؤلاء الرجال الستة .. كنت أتمنى لو لم يعد هؤلاء الجنود » وبسط كوريل يديه وقال مواسيا « ان ستة رجال خسارة ضئيلة فى سبيل بلدة متسعة مثل هذه تضم منجم فحم » . وقال لانسر فى حزم « أنا لا أعارض فى قتل الناس اذا كان هذا ينهى القتال ، ولكن فى بعض الأحيان يحسن الامتناع عن القتل » . وكان

كوريل يتفحص وجوه الضباط ، ويلقى نظرات جانبيه الى الكولونيل ثم قال « ترى هل نستطيع أن نتكلم على انفراد يا سيدى الكولونيل » فقال الكولونيل « نعم اذا أردت ، يا ملازم پراكل وأنت يا توندر هل لكما أن تذهبا الى حجرتكما » ثم قال الكولونيل لكوريل « ان الماجور هنتر يعمل ، وهو حين يعمل لا يسمع شيئا » ورفع هنتر عينه عن لوحته وابتسم بهدوء ثم عاد الى لوحته ، وترك الملازمان الصغيران الحجرة وحين اختفيا قال لانسر « حسنا .. ها نحن أولاء وحدنا .. هلا جلست » وقال كوريل « شكرا يا سيدى » ثم جلس خلف المنضدة ونظر لانسر الى الرباط على رأس كوريل ثم قال فى اقتضاب « هل بدأوا فعلا فى محاولة قتلك ؟ » وتحسس كوريل الرباط بأصابعه وقال « تقصد هذه .. آه .. انها اصابة من حجر سقط على هذا الصباح من صخرة فى التلال » .

— هل أنت واثق انه لم يقذف عليك ؟

وسأل كوريل « ماذا تقصد ؟ انهم ليسوا قوما قساة ، انهم لم يشهدوا حربا منذ مائة عام ، لقد نسوا كل ما يتعلق بالقتال » فقال الكولونيل « حسنا ، انك تعيش بينهم ، وأنت أعرف بهم منى » وخطا قريبا من كوريل ثم قال « ان تكن فى أمن الآن فاعلم ان هؤلاء القوم يختلفون عن جميع

شعوب العالم .. لقد طالما مهدت لاحتلال بلدان من قبل .. لقد كنت فى بلچيكا وفرنسا من عشرين عاما .. » وهز رأسه هزة خفيفة كأنما يريد أن يوضح ما يقصد اليه ثم قال فى خشونة « لقد أحسنت عملك ، وعلينا أن نشكرك ، وقد ذكرت ما قمت به فى تقريرى » فقال كوريل « شكرا يا سيدى ، لقد بذلت كل جهدى » فقال لانسر فى شىء من الضيق « حسنا يا سيدى ، والآن ماذا نستطيع أن نعمل لك ، أتحب أن تعود الى العاصمة ، اننا نستطيع أن نهىء لك مكانا على ناقلة فحم اذا كنت فى عجلة من أمرك ، أو على مدمرة اذا طاب لك أن تتريث » فقال كوريل « ولكننى لا أريد العودة الى العاصمة ، اننى باق هنا » وفكر لانسر هنيهة ثم قال « أنت تعلم ان قواتى قليلة العدد ، ولا أستطيع أن أحيطك بحراسة كافية » .

— ولكننى لا أحتاج حراسة ، لقد قلت لك ان القوم هنا لا يميلون الى العنف .

وألقى لانسر نظره الى الرباط بينما رفع هنتر بصره عن اللوحة وقال معلقا « يحسن بك أن تتخذ خوذة على رأسك » ثم أعاد نظره الى عمله . ومال كوريل الى الأمام فى جلسته ثم قال « انما أريد أن أحادثك أنت يا كولونيل ، أظن اننى سأكون ذا فائدة فى السلطات المدنية » .

واستدار لانسر على عقبيه ومشى الى النافذة ونظر منها

ثم التفت الى كوريل وقال فى هدوء « فيم تفكر ؟ » .

— حسنا ، يجب أن تقيم سلطة مدنية تثق بها ، وأظن انه يجمل بالعمدة أوردن أن يتنازل عن منصبه ، فاذا حللت مكانه فان السلطتين المدنية والعسكرية سيتعاونان فى يسر معـا .

وبدت أعين لانسر وكأنها تتسع بالبريق ، واقترب من كوريل ثم تكلم فى حدة « هل ذكرت هذا فى تقريرك ؟ » فقـال كوريل « حسـنا .. نعـم .. ذكرته فى تحليـلى للموقف .. » وقاطعه لانسر قائلا « فهل حادثت أحـدا من المواطنين عن العمدة منذ قدومنا » فقال كوريل « حسنا .. لا .. أنت ترى انهم ما زالوا ذاهلين ، فما كانوا يتوقعون ما حل بهم » ثم ضحك وقال « لا يا سيدى ، انهم بالتأكيد لم يتوقعوا ما حل بهم » ولكن لانسر صمم على سـؤاله « اذن فأنت لا تعرف حقيقة ما يدور بأذهانهم » فقال كوريل « انهم ذاهلـون وكأنهم فى حـلم » فسأله لانسر « فأنت لا تدرى موقفهم منك ؟ » .

— ان لى أصدقاء عديدين ، واعرف كل شخص هنا .

— فهل اشترى أحد شيئا من دكانك فى يومك هذا ؟

فأجاب كوريل « حسنا .. ان السوق راكدة ، ولا أحد يشترى شيئا » .

واسترخى لانسر فجأة وذهب الى كرسى وجلس اليه ووضع احدى رجليه على الأخرى وقال فى هدوء « انك تعمل

فى أصعب فرع فى الخدمة العسكرية وهو أكثر الفروع حاجة للشجاعة ، ويجب أن تجزل لك المكافأة » .

— شكرا يا سيدى .

فقال الكولونيل « وسوف تنال كراهيتهم فى حينها » ؟

— أستطيع أن أواجه هذا يا سيدى ، فانهم الأعداء .

وتردد لانسر لحظة طويلة قبل أن يقول فى نعومة « انك حتى لن تنال احترامنا » وقفز كوريل على قدميه فى اضطراب قائلا « ان هذا ينافى قول الزعيم ، فهو يقول ان جميع العاملين فى الخدمة العسكرية جديرون بالاحترام » .

وتابع لانسر حديثه وهو فى غاية الهدوء « ليت الزعيم يعرف ، ليته يتعمق عقلية الجنود » ثم قال فى حماسة « يجب أن نجزل لك المكافأة » وسكت لحظة ثم استجمع قائلا « آن لنا أن نواجه الحقيقة ، اننى المسئول هنا ، ومهمتى أن استخرج الفحم ، وحتى أنجز هذه المهمة لابد لى أن أقر الأمن والنظام ، وحتى يستقر الأمن والنظام لابد لى أن أعلم ما يجرى فى عقول هؤلاء القوم ، يجب أن أتوقع الثورة .. هل تعى ما أقول » وقال كوريل « حسنا ، فاننى أستطيع أن آتيك بما تريد معرفته ، وان أصبحت عمدة لهذه البلدة تهيأ لى أن أدعم مكانكم هنا » .

وهز لانسر رأسه « ليست لدى تعليمات تتعلق بهذا

الشأن فالرأى فى هـذا متروك لى وحدى ، واعتقادى انك لن تستطيع بعد اليوم أن تعرف ماجريات الأمور هنا ، فان أحدا من الشعب لن يحادثك ، ولن يقترب منك الا هؤلاء الذين لا يحيون الا من أجل المال ، ويخيل الى انك محتاج الى حراسة والا تعرضت الى خطر داهم ، وانه يسرنى أن تعود الى العاصمة ، هناك حيث تكافأ على عملك الجليل » وقال كوريل « ولكن مكانى هنا يا سيدى وقد اخترته أنا لنفسى ، وذكرت ذلك جميعا فى التقرير الذى رفعته » .

وتابع لانسر حديثه وكأنه لم يسمع شيئا « ان العمدة أوردن يمثل أكثر من وظيفة العمودية .. انه الشعب ، فهو يعلم ما يعملون كما يعرف ما يفكرون فيه دون أن يسأل واحدا منهم عن شىء من ذلك، فهو يفكر كما يفكرون فكأننى اذا راقبته أراقبهم جميعا .. لابد أن يظل فى منصبه ، وهذا هو قرارى » وقال كوريل « ان عملى يا سيدى يستحق معاملة أفضل من ارسالى الى الخارج » فقال لانسر فى بطء « نعم انه يستحق ، ولكن بقاءك الآن قد يعوق عملا أكبر أن يتم ، ان كنت لم تكره بعد فسوف يكرهونك ، وان نشبت ثورة مهما تكن واهية فأنت أول قتيل فيها ، أظننى سأقترح عودتك » وقال كوريل فى جفاء « ولكنك ستسمح لى طبعا أن أنتظر اجابة على تقريرى الذى أرسلته الى العاصمة »

— نعم بالطبع ، ولكننى سأنصح بعودتك لأضمن لك

السلامة ، انك يا مستر كوريل — بصراحة — لا قيمة لك هنا ، ولكن قد تكون هناك خطط جديدة لاحتلال بلاد أخرى ، ولعلك ترسل لاحدى مدن هذه البلاد ، فتكتسب ثقة جديدة فى ميدان جديد ، ولعل العمل يناط بك فى مدينة كبيرة قد تكون عاصمة حيث تتعلق بك مسئوليات أضخم . سأطنب فى امتداح عملك هنا » .

وكانت عينا كوريل تفيضان بالرضى حين قال « شكرا يا سيدى فقد أديت واجبى ، ولعلك على حق ولكنك ستسمح لى أن أنتظر رد العاصمة » .

وكان صوت لانسر حازما وعيناه بارقتين وهو يقول فى قسوة « ضع خوذة على رأسك، واقبع داخل منزلك ولا تخرج فى المساء ، وقبل كل شىء حذار أن تشرب الخمر ولا تثق فى أية امرأة أو أى رجل ، اتفهم ما أقول » ؟

ونظر كوريل الى الكولونيل وكأنه يرثى له وقال « أظن انك أنت لا تفهم الموقف هنا ، فأنا أملك منزلا صغيرا تقوم على خدمتى فيه حسناء من الريف ، ويخيل الى أنها مغرمة بى الى حد ما ، انهم قوم بسطاء مسالمون وانى أعرفهم » .

فقال لانسر « ليس هناك قوم مسالمين .. متى تتعلم هذا .. وليس هناك شعب صديق ، لقد احتللنا هذه البلاد ، وأنت — بما يسمونه خيانة — هيأت لهذا الاحتلال » واحتقن وجهه وأخذ صوته يعلو وتابع قوله « ألا تستطيع أن

تفهم اننا فى حالة حرب مع هذا الشعب » فقال كوريل « لقد هزمنا هذا الشعب » .

ووقف الكولونيل ورفع ذراعيه فى يأس ورفع هنتر عينيه عن لوحته ومد يده ليحمى الرسم من الاهتزاز وقال « احترس يا سيدى فاننى أحبر الرسم ، ولن أستطيع أن أرسمه مرة أخرى » .

وخفض لانسر بصره اليه وقال « آسف » وتابع حديثه وكأنه يحاضر فصلا فى مدرسة « ان الهزيمة أمر عارض لا يدوم ، لقد لاقينا الهزيمة ، ثم ها نحن أولاء نهاجم الآن ، ان الهزيمة لا تعنى شيئا .. ألا تستطيع أن تفهم هذا ، أتدرى ما يتهامسون به وراء الأبواب ؟ » فسأله كوريل « أتدرى أنت ؟ » .

— لا ، ولكننى أستنتج .

فقال كوريل فى خبث « أتخاف أيها الكولونيل ؟ أيجوز لقائد الاحتلال أن يخاف ؟ » .

جلس لانسر فى تثاقل وقال « لعل الأمر كما تقول » ثم قال فى اشمئزاز « لقد سئمت من هؤلاء الذين لم يشهدوا حربا ثم يعرفون كل شىء عن الحرب » وتحسس ذقنه قائلا « أذكر امرأة عجوزا ضئيلة الجسم فى بروكسل ، كانت جميلة الوجه ، بيضاء الشعر ، وكانت قامتها لا تزيد عن

خمس أقدام ، وكانت يداها رقيقتين ، يبدو عليهما الكبر حتى لكان يمكنك أن ترى عروقها الضاربة الى السواد من خلال جلدها ، يغطى شعرها المائل الى الزرقة شال أسود ، لقد دأبت هذه السيدة أن تغنى لنا أناشيدها الوطنية فى صوت حلو أوعشه الكبر ، وكانت تعرف دائما أين تجد السجائر .. والعذارى » وأنزل يده عن ذقنه وأمسك بنفسه وكأنه يحمى جسمه من السقوط ثم قال « لم نكن نعلم اننا أعدمنا ابنها ، وهكذا أعدمناها بعد أن قتلت منا اثنى عشر رجلا بدبوس كبير أسود مما يعلقه النساء على قبعاتهن وما زلت احتفظ به حتى الآن ، ان له رأسا مطليا مرسوم عليه طائر » .

وقال كوريل « ولكنكم أعدمتموها ؟ » .

— بالطبع أعدمناها .

وسأل كوريل « وتوقف القتل ؟ » .

— لا .. لم يتوقف القتل ، وعندما انسحبنا أخيرا ، قطع الشعب الطريق على فلول الجيش المنخلفة ، وأحرقوا بعضا منهم وسملوا عيون بعض آخـرين ، بل لقد صلبوا بعض الجنـود .

وقال كوريل فى صوت مرتفع « ليس هذا بالذى يحسن قوله هنا يا أيها الكولونيل » وقال لانسر « انها ليست بالأشياء التى يطيب تذكرها » .

فقال كوريل « لا يليق بك أن تكون قائدا اذا كنت

تخاف » وأجاب لانسر فى هدوء « انى أعرف كيف أحارب ، وان عرفت كيف تحارب تفاديت الوقوع فى أخطاء سخيفة »

— أهكذا تكلم صغار الضباط .

وهز لانسر رأسه قائلا « لا ، فما كانوا ليصدقونى لو فعلت » .

— فلماذا تخبرنى بهذا ؟

— لأنك قد أتممت عملك يا مستر كوريل ، فانى أذكر مرة ..

وعندما بدأ هذا الحديث علت أصوات أقدام تصعد السلالم وانفجر الباب مفتوحا ، وبدا حارس فى فتحته بينما اندفع عبره الكابتن لوفت . وكان لوفت جامدا فى برود عسكرى وقال « هناك اضطرابات يا سيدى » .

— اضطرابات ؟

— على أن أعلن سيدى ان الكابتن بنتيك قد قتل .

فقال لانسر « .. آه .. حقاً .. بنتيك » .

وبدا صوت عدد من الاقدام على السلالم ، بينما دخل جنديان يحملان نقالة عليها جثة مغطاة بالملاءات .

فقال لانسر « هل أنت واثق انه مات ؟ » وقال لوفت فى جمود « واثق تماما » .

وخرج الملازمان من غرفة النوم وقد فغر كل منهما فمه

وغشى الخوف أنظارهما وقال لانسر « ضعوه هناك » ثم أشار الى جدار بجانب الشباك ، وعندما خرج الجنديان ركع لانسر وأزاح جانبا من الغطاء ثم اعادة فى سرعة ، ونظر الى لوفت وهو ما يزال راكعا وقال « من فعل هذا » فقال لوفت « عامل بالمنجم » .

— ولمـــاذا ؟

— لقد كنت هناك يا سيدى ؟

— حسنا .. فأبلغ تقـــريرك اذن .. أبلغ تقريرك بحق الشيطان أيها الرجل .

وانتصب لوفت فى وقفته وقال فى لهجة رسمية .. « لقد حللت محل الكابتن بنتيك تنفيذا لأمر الكولونيل ، وكان الكابتن بنتيك على وشك أن يتركنا ليأتى الى هنا ، حين نشبت مشادة بينى وبين عامل منجم متمرد أراد أن يترك العمل وصاح بما يشير الى انه رجل حر ، وحين أمرته أن يعود الى عمله اندفع الى يحمل معوله ، وحاول الكابتن بنتيك أن يتداخل » وأومأ الى الجثة ايماءة خفيفة . وهز لانسر رأسه ببطء وهو ما يزال راكعا وقال « كان بنتيك رجلا غريبا كان يحب الانجليز ، ويحب كل ما يتصل بهم ، أنا لا أظن انه أحب القتال كثيرا .. هل قبضت على الرجل ؟ » فقال لوفت « نعم يا سيدى » ووقف لانسر ببطء وتحدث فكأنه يحدث نفسه « وهكذا نبدأ ثانية ، سوف نرمى هذا

الرجل بالرصاص فنصنع عشرين عدوا جديدا ، هـذا هو الشيء الوحيد الذى نعرفه .. الشيء الوحيد الذى نعرفه » وقال پراكل « ماذا تقول يا سيدى ؟ » فأجابه لانسر « لا شيء .. لا شيء على الاطلاق ، انما كنت أفكر » ثم تحول الى لوفت وقال « أرجوك أن تبلغ تحياتى الى العمدة أوردن واسأله أن يأتى لأراه فورا ، هذا مهم جدا » .

ورفع الماجور هنتر بصره وجفف حبر قلمه فى عنـاية ووضعه فى علبة مبطنة بالقطيفة .

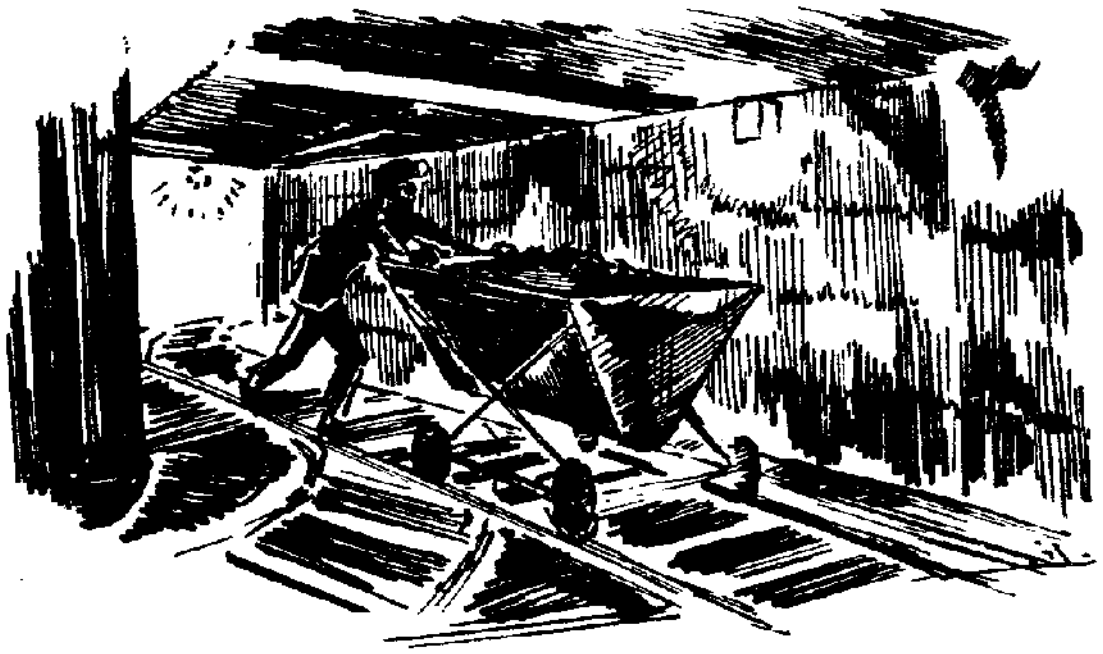

كان الناس يسعون فى كآبة خلال شوارع البلدة ، وقد أخذت الدهشة تزول شيئا فشيئا عن عيونهم ، ولم يكن الغضب قد حل مكان الدهشة بعد ، ففى نوبات العمل عند مدخل المنجم كان العمال يدفعون عربات الفحم فى أسى ، وكان صغار التجار واقفين فى حوانيتهم ليلبوا طلبات الناس ، ولكن لا أحد من هؤلاء الناس يطلب اليهم شيئا . وكان الناس يتبادلون الجمل المقتضبة ، يفكر كل فرد منهم فى الحرب وفى نفسه وفى ذلك الماضى الذى تغير فجأة .

وفى غرفة الاستقبال بقصر العمدة أوردن ، كانت تشتعل نار هادئة اللهب وكانت الأنوار مضاءة ، فقد كان اليوم أغبر فى الخارج وكان الهواء محملا بالصقيع ، وكانت ثمة تغييرات تحدث فى الغرفة نفسها ، فالمقاعد المغطاة بالسجاجيد

قد دفعت الى الخلف ، والمنضدة الصغيرة قد أزيحت عن الطريق ، ومن خـلال الباب الأيمن كان چوزيف وآنى يجاهدان ليدخلا مائدة طعام ضخمة مربعة ، فهما يقلبانها على جانبها ، وكان چوزيف فى غرفة الاستقبال بينما بدا وجه آنى الأحمر من خلال الباب وعالج چوزيف ادخال الأرجل مائلا بها يمنة ويسرة ثم صاح « لا تدفعى المنضدة الآن يا آنى » فقالت آنى الغاضبة ذات الأنف الأحمر والعينين الحمراويين « عارفة » . وكانت آنى دائما غاضبة بعض الشىء ، حتى لم يستطع هؤلاء الجنود أو هذا الاحتلال أن يطوع ثائرها ، وهكذا فجأة أصبح شعورا وطنيا ما كان يعتبره الناس سوء خلق فيها . وقد اكتسبت آنى بعض الشهرة فى مجال الحرية لأنها قذفت جنود الاحتلال بالماء المغلى ، وقد كانت خليقة أن تقذف بهذا الماء أى انسان يقترب الى بابها ، ولكن على أية حال قد حدث وأصبحت احدى البطلات .

ولما كان الغضب هو الخطوة الأولى التى سعت بها الى الشهرة فقد اتخذته آنى وسيلة الى شهرات جديدة ، مقحمة نفسها دائما فى مواطن الغضب الدائم الثورة .

قال چوزيف « حذار أن يحتك جانب النضد بالأرض » ولكن النضد استعصت على المرور من الباب فحذر چوزيف آنى قائلا « اثبتى » فقالت آنى « انى ثابتة » . واعتدل چوزيف وأخـذ يدرس موقف المنضدة بينما شبكت آنى ذراعيها وراحت تحملق فى چوزيف واختبر چوزيف رجلا من

أرجل المنضدة ثم قال « لا تدفعى ، لا تدفعى المنضدة بهذا العنف » ثم راح وحده يجذب النضد الى داخل الحجرة حتى دخلت بينما تبعته آنى وقد اشتبكت ذراعاها ، وقال چوزيف « الآن فلتقم على أرجلها » فراحت آنى أخيرا تعاونه فى اقامة المنضدة على أرجلها الأربع ثم فى دفعها الى وسط الحجرة ثم قالت « أخيرا . لو لم يأمرنى سعادة العمدة لما قبلت أن أقوم بهذا العمل » بأى حق يحركون المناضد خلال البيت . فقال چوزيف « وأى حق ترينه فى مجيئهم على الاطلاق » فقال آنى « ولا حق » فأعاد چوزيف « ولا حق ، بل اننى أرى ألا حق لهم فى شىء مما يفعلونه جميعا ، ولكنهم يفعلونه ، مؤيدين بسلاحهم ومظلاتهم الهابطة انهم يفعلون ما يريدون يا آنى »فقالت آنى«ولكن بغير حق،وعلى أية حال ماذا يريدون من منضدة تقام هنا وليست هذه غرفة للطعام » وقرب چوزيف كرسياً الى المنضدة ووضعه فى دقة على البعد المناسب من المنضدة ثم هيأه لاستقبال لجالس .

وقال « انهم سيقيمون محاكمة ، سيحاكمون الكسندر موردن » .

— زوج مولى مورون ؟

— زوج مولى مورون .

— ألأنه قتل رجلهم بمعوله ؟

فقال چوزيف « نعم » فقالت آنى « ولكنه شاب طيب ، انه لا يحق لهم أن يحاكموه ، لقد أهدى مولى فستانا أحمر

فاخرا فى عيد ميلادها . أى حق لهم فى محاكمة الكس ؟ »
فقال چوزيف « حسنا .. انه قتل رجلهم » فراحت آنى تثرثر قائلة « وان يكن قتله ، لقد كان الضابط يأمره ليعود الى العمل ، لقد سمعت بما حدث ، ان الكسى يكره أن يأمره أحد ، فقد تعود أن يكون رجلا حرا أبيا ، وكذلك كان أبوه من قبل ، وان مولى موردن تصنع الفطائر المتقنة ، وان كانت الطبقة البيضاء تتجمد منها ، ماذا تراهم فاعلين بالكس ؟ » فقال چوزيف مكفهرا « سيرمونه بالرصاص » .

— انهن لن يفعلوا ذلك .

— قربى الكراسى يا آنى ، بل سيفعلون، نعم سيفعلونها.

ولوحت آنى بأصبع مشدودة الى وجهه وقالت فى غضب « تذكر ما سأقوله لك ، ان الناس لن يرضوا على ايذاء الكس ، فان القوم يحبون الكس ، أرأيته يسىء الى أحد فى حياته ؟ أجب على هذا السؤال » فقال چوزيف « لا » .

— حسنا .. اتفقنا ، اذا أصابوا الكس بالأذى فسيثور من الناس ثائرهم ، بل اننى أيضا سيثور ثائرى ، ولن أسكت على ذلك .

فسألها چوزيف « وماذا تراك تفعلين ؟ » فقالت آنى « ماذا ! سأقتل بعضا منهم بيدى » فقال چوزيف « وحينئذ يعدمونك » .

— فليفعلوا ، ها أنذا أخبرك يا چوزيف ان الأمور قد

تجرى الى أسوأ مدى ، سيضطرون الى التنقيب طوال الليل وسيقتلون الناس .

وأعد چوزيف أحد الكراسى على رأس المائدة وأصبح — بطريقة عجيبة — متآمرا ، فهو يقول فى صوت خفيض « آنى » وفهمت آنى مغزى هذه النبرة الخفيضة فمشت حتى اقتربت منه فقال لها « اتكتمين السر ؟ » فنظرت اليه فى شىء من الاعجاب لأنه لم يكن رجل أسرار من قبل أبدا وقالت « نعم ، ما وراءك ؟ » .

— حسنا ، وليم ويل ، وولتر دوجل هربا ليلة أمس .

— هربا ؟ الى أين ؟

— هربا الى انجلترا فى قارب صغير .

فتنهدت آنى فى ارتياح ولهفة ثم قالت « أيعرف الجميع هذا الأمر » فقال چوزيف حسنا .. ليس الجميع .. الجميع .. ما عدا .. » ثم أومأ ايماءة سريعة بأصبعه تجاه السقف :

— ومتى رحلا ، ولماذا لم أسمع شيئا عن هذا الأمر ؟

فقال چوزيف « لقد كنت مشغولة » ثم اتخذ وجها جامدا وأصبح صوته باردا وهو يقول « أتعرفين كوريل هذا ؟ » .

— ماله ؟

واقترب چوزيف منها قائلا « ما أظنه سيعيش طويلا » فسألته آنى « ماذا تقصد » .

— حسنا ، ان الناس يتكلمون .

فتنهدت آنى من أعماقها قائلة « آه و أصبح چوزيف ذا رأى أخيرا فهو يقول « ان القوم يتضافرون فما يرضيهم أن تحتل بلادهم ، وان أمورا فى طريقها الى الحدوث ، فلتظل عيناك يقظتين يا آنى ، فانه سيعهد اليك بأعمال تؤدينها» فسألته آنى « وماذا عن سعادة العمدة ؟ ماذا سيفعل ؟ ما موقفه من هذه الأمور ؟ » فقال چوزيف « لا أحد يعلم فهو لا يقول شيئا » فقالت آنى « انه لن يكون ضدنا » فقال چوزيف « انه لا يتكلم » .

ودار مقبض الباب الأيسر ودخل العمدة أوردن فى مشية بطيئة وقد بدا عليه الكبر والاجهاد ، ومن خلفه كان يمشى الدكتور وينتر وقال أوردن « هذا حسن يا چوزيف ، شكرا يا آنى ، لقد أحسنتما اعدادها » وخرج الخادمان ، ونظر چوزيف خلفه من خلال الباب قبل أن يقفله . وسار العمدة أوردن الى المدفأة ، وأزاح الدكتور وينتر الكرسى عن رأس المائدة وجلس عليه وقال أوردن « انى أسائل الى متى أستطيع الثبات على هذا الموقف فثقة الناس بى غير كاملة ، وكذلك الشأن مع الأعداء ، وانى لأتساءل ان كان هذا موقفا سليما » فقال وينتر « لا أدرى ، ولكن أنت تثق بنفسك ، أليس كذلك ، ان دخيلة نفسك لا يساورها الشك » فصاح أوردن « الشك ! لا فانى أنا العمدة ، ولكنى لا أفهم أمورا كثيرة » ثم أشار الى المنضدة وتابع حديثه « فأنا لا أدرى لماذا يريدون أن يقيموا محاكمتهم هنا فى بيتى، انهم سيحاكمون

الكس موردن هنا بتهمة القتل ، أتذكر الكس ، انه زوج مولى تلك الفتاة الصغيرة الجميلة » فقال وينتر « انى أذكرها فقد كانت مدرسة بالمدرسة الثانوية ، نعم انى أذكرها ، انها فى غاية الجمال حتى لتكره أن تلبس نظارة برغم حاجتها اليها أعتقد ان الكس قتل ضابطا بالفعل ، ان أحدا لا يناقش فى هذا فلماذا يحاكمونه ، ما لهم لا يعدمونه ، فان اعدامه ليس محل شك أو ثقة ، ولا هو محال عدل أو ظلم ، لا شىء من هذا يتصل بما نحن فيه ، فمالهم يصرون على محاكمته وفى بيتى » فقال وينتر « اننى أعتقد انهم يريدون استكمال المظاهر ، ان لهم هدفا يسعون اليه من وراء ذلك فانك تنال الشىء . اذا راعيت ما يقتضيه من شكليات ، وقد يقتنع الناس أحيانا بمظاهر الأشياء ، ألا ترى انه كان للجيش ، جنود يحملون سلاحا ، ولكنه لم يكن جيشا ، والمحتلون سيقيمون محاكمة ، وهم يأملون أن يقتنع الناس ان ثمة عدلا يسودهم ، لقد قتل الكس الملازم كما تعلم » وقال أوردن « نعم ، انى أدرك ما ترمى اليه » وتابع وينتر حديثه « فاذا أقيمت المحاكمة فى بيتك حيث يتوقع الناس العدل .. »

وقوطع وينتر بالباب الأيمن يفتح ، ودخلت سيدة شابة فى الثلاثين من عمرها فى غاية الرشاقة ، تحمل نظارتها فى يدها ، وترتدى ملابس بسيطة مهندمة ، وكانت السيدة مضطربة كل الاضطراب وتكلمت فى سرعة قائلة « طلبت

الى آنى أن أدخل مباشرة يا سيدى » فقال العمدة « ولم لا ، بالطبع يمكنك الدخول ، أنت مولى موردن » .

— نعم يا سيدى أنا مولى موردن ، يقولون ان الكس سيحاكم ويعدم .

فخفض أوردن نظـره الى الأرض هنيهة وتابعت مولى حديثها « يقولون انكم ستحكمون عليه بالاعـدام ، انها كلماتك التى سترسله الى الموت » ورفع أوردن نظره فى رجفة « ماذا تعنين ؟ من قال هذا ؟ » فقالت « الناس فى البلدة » وانتصبت فى وقفتها ، وسألت فى نبرة تضطرب بين التوسل والأمر « لن تفعل هذا ، أتفعله يا سيدى ؟ » فقال « كيف يعرف الناس ما لا أعرف ؟ » وقال الدكتور وينتر « انه لسر كبير ، سر اضطرب له الحكام فى جميع أنحاء العالم ، كيف يعرف الناس ؟ وها هم أولاء المحتلون يضطربون له الآن ، كيف تفلت الأنباء من أعين الرقباء ، كيف تنتزع حقائق الأمور من أيدى السلطات ، انه لسر كبير » .

ورفعت الفتاة بصرها فقد أظلمت الغرفة فجأة ، وبدت الفتاة وكأنها خائفة وقالت « انها سحابة ، يقال ان الجليد فى طريقه الينا وانه سيسقط مبكرا » وذهب الدكتور وينتر الى الشباك ورفع رأسه الى السماء قائلا « نعم ، انها سحابة كبيرة ، لعلها تمر » وأنار العمدة أوردن مصباحا فأرسل ضوءه فى دائرة صغيرة حوله ، فعاد وأطفأه وهو يقول « ان

الاضاءة فى وضح النهار تثير الشعور بالوحدة » وحينئذ اقتربت مولى اليه ثانية وقالت « ليس الكس بالرجل السفاك انه سريع الغضب ، ولكنه لم يخرج على القانون أبدا ، فهو رجل يحترم نفسه ، وأراح أوردن يده على كتفها وقال « انى أعرف الكس منذ كان طفلا صغيرا ، وانى أعرف أباه وجده ، كان جده صائد دببة فى ماضى الأيام ، أتعرفين ذلك ؟ » وتجاهلت مولى سؤاله وقالت « انك لن تدين الكس » فقال « لا ، كيف أستطيع أن أدينه ؟ » .

— يقول الناس انك ستحكم عليه من أجل النظام العام .

ووقف العمدة أوردن خلف الكرسى وأمسك مسنده بيديه وقال « هل يريد الناس النظام يا مولى ؟ » فقالت « لا أدرى ولكنهم يريدون الحرية » .

— حسنا ، أيعرفون كيف يسعون اليها ؟ أيعرفون اى سبيل يسلكونه أمام عدو مسلح ؟

فقالت مولى « لا ، لا أظنهم يعرفون » .

— أتعرفين انك فتاة ذكية يا مولى ؟

— لا ، يا سيدى لا أعرف ذلك ، ولكننى أظن أن الناس يدركون انهم اذا وادعوا الأعداء اكتملت عليهم الهزيمة ، انهم يريدون أن يعلموا هؤلاء الجنود أنهم شعب لا يهزم .

فقال الدكتور وينتر « ولكن الفرصة لم تتح لهم ليحاربوا ،

ان الصراع يستحيل ضد المدافع الرشاشة » فقال أوردن « حين تعرفين ما يريدون أن يفعلوه اتخبرينني به يا مولى ؟ » فنظرت اليه فى شك وقالت « نعم » .

— تقصدين « لا » أنت لا تثقين بى ؟

فسألته « ولكن ماذا أنت صانع بالكس » فقال أوردن « لن آدينه ، فهو لم يقترف جرما ضد شعبنا » وترددت مولى قبل أن تقول « أتراهم .. أتراهم سيقتلون الكس » فحدق أوردن فيها وقال « أيتها الطفلة العزيزة .. يا طفلتى العزيزة » وانتصبت مولى فى وقفتها وقالت « شكرا » واقترب أوردن منها فقالت فى تخاذل « لا تلمسنى .. أرجوك لا تلمسنى .. أرجوك لا تلمسنى » فسقطت يده الى جانبه وظلت مولى واقفة هنيهة ثم استدارت فى جمود وخرجت من الباب .

وما ان أقفلت الباب حتى دخل چوزيف وقال « معذرة يا سيدى ، فان الكولونيل يريد أن يراك ، وقد قلت له انك مشغول ، فقد كنت أعلم انها هنا ، والسيدة زوجتكم تريد أن تراك أيضا » فقال أوردن « سل السيدة أن تأتى » وخرج چوزيف ودخلت السيدة مباشرة .

— لا أدرى كيف أدبر أمر هذا المنزل ، ان الناس هنا أكثر مما يتسع لهم البيت وأنى غاضبة دائما .

فقال لها أوردن « كفى » ونظرت اليه السيدة فى دهشة

وقالت « لست أدرى ما .. » فقاطعها العمدة قائلا « كفى ، اسمعى يا سارة ، أريدك أن تذهبى الى بيت الكس موردن عفوا يا صاحب السعادة .. » فقال العمدة « ماذا تريد ؟ اتفهمين ، وأريدك أن تلازمى مولى موردن طالما احتاجت اليك لا تجادليها وانما لازميها » فقالت السيدة « ان لدى مئات الأعمال » .

— سارة ، أريدك أن تلازمى مولى موردن ، اذهبى ولا تتركيها ، اذهبى الآن .

وبدأت السيدة تفهم فى بطء ما يرمى اليه وقالت « حسنا، حسنا سأذهب ، متى تنتهى هذه المحاكمة » فقال « لا أدرى ، وسأرسل لك آنى فى الوقت المناسب » .

وطبعت السيدة على خده قبلة سريعة وخرجت ومشى أوردن الى الباب ونادى « يا چوزيف ، أستطيع أن أرى الكولونيل الآن » ؟

ودخل لانسر مرتديا حلة رسمية حديثة الكى وقد علق بحزامها خنجرا صغيرا مزركشا وقال « صباح الخير يا صاحب السعادة ، أريد أن أحادثك حديثا بعيدا عن الرسميات » ثم ألقى نظره الى الدكتور وينتر وقال « وأحب أن أحادثك على انفراد » وقصد وينتر فى مشية بطيئة الى الباب وما أن بلغه حتى قال أوردن « يا دكتور » واستدار وينتر قائلا « نعم » .

— هل أنت عائد هذا المساء ؟

فسأله الدكتور « أتحتاج الى فى عمل ما ؟ »

— لا .. لا .. ولكننى لا أحب أن أكون وحيدا .

فقال الطبيب « سأكون هنا » .

— أتعتقد يا دكتور ان مولى على ما يرام .

— نعم ، أعتقد ذلك ، وان كانت على وشك الجنون ولكنها عريقة الأصل ، ذات معدن نقى صلب ، فهى من أسرة كندرلى كما تعلم .

فقال أوردن « كدت أنسى ، نعم انها من أسرة كندولى .. أليست كذلك » وخرج الدكتور وينتر وأقفل الباب خلفه فى رفق وانتظر لانسر نهاية هذا الحديث فى أدب ، وراقب الباب وهو يقفل ثم نظر الى المنضدة والكراسى التى تحيط بها وقال « لا داعى الى أن أخبرك عن مقدار أسفى لما يجرى، فقد تمنيت ألا يحدث شىء من ذلك » وانحنى العمدة أوردن بينما تابع لانسر حديثه « انى أحبك يا سيدى وأقدرك ، ولكنها مهمة ملقاة على عاتقى ولا بد لى أن أؤديها ، وما أخالك ألا تعرف هذا » ولم يجب أوردن وانما تعمق عينى لانسر .

— اننا لا نعمل من تلقاء أنفسنا أو بوحى من أحكامنا الخاصـــة .

وكان لانسر يسكت بين الجمل منتظرا اجابة من أوردن ولكن دون جدوى .

ـ ان ثمة تعليمات وضعت لتحكمنا ، تعليمات صنعت فى العاصمة . وقد قتل هذا الرجل ضابطا .

وأخيرا أجاب أوردن « ولماذا لم تقتلوه فى الحال ، لقد كان الوقت مناسبا » وهز لانسر رأسه وقال « لو فعلنا ذلك لما كان لموته أثر بين الناس ، فأنت تعرف كما أعرف ان العقاب انما يوقع ليردع منتوى الاجرام فلا يرتكب جرمه ، ولما كان العقاب قد شرع ليرهب الآخرين فانه لابد له أن يكون علنا ، بل لابد له أن يتخذ مظهرا مسرحيا » وغرس اصبعه تحت حزامه وتلاعب بخنجره الصغير . واستدار أوردن ينظر من خلال النافذة الى السماء المعتمة وقال « ان الجليد سيهبط هذا المساء » فقال لانسر « أنت تعلم يا حضرة العمدة ان أوامرنا صارمة ، ولابد أن نحصل على الفحم ، اذا أبى رجالك أن يخضعوا للنظام اضطررنا الى اخضاعهم بالقوة » ثم تابع حديثه فى صوت حازم « قد نرمى الناس بالرصاص اذا اضطررنا لذلك ، ان حكومتى ترى أن من الحكمة أن تقوم السلطات المحلية بتوقيع العقاب ، لأن هذا يؤدى الى اقرار النظام » فقال أوردن فى صوت خافت « اذن فما عرفه الناس كان حقـا ، انه لسر كبير » ثم ارتفع صوته قائلا « أتريدنى أن أحكم بالاعدام على الكسندر موردن بعـد محاكمة تقوم فى بيتى ؟ » .

ـ نعم ، وانك بهذا تحقن كثيرا من الدماء أن تراق بعد ذلك .

وذهب أوردن الى المنضدة وجذب الكرسى الكبير الموضوع على رأسها وجلس ، فبدا عليه فجأة مظهر القاضى ، بينما بدا على لانسر مظهر المتهم ، وأخذ أوردن ينقر على المنضدة بأصابعه ثم قال « لا أنت ولا حكومتك تفهمان الموقف ، فان حكومتك وشعبك ينفردان فى العالم أجمع بسجل من الهزائم تتوالى عليهم منذ عدة قرون ، وما كان ذلك الا لجهلكم بطبيعة الشعوب » ثم سكت قليلا وقال « ان مبدأكم هذا عقيم ، أولا ، أنا العمدة ولا أملك أن أصدر حكم الاعدام ، بل لا أحد فى هذه البلدة يملك هذا الحق فاذا أصدرت هذا الحكم أكون قد خرجت على القانون كما تخرجون أنتم عليه » فقال لانسر « نخرج على القانون ؟ »

— لقد قتلتم منا ستة رجال فى أول قدومكم ، وطبقا لقانوننا أنتم متهمون بجريمة القتل جميعكم متهم بلا استثناء فما اهتمامكم بتلك الخرافات القانونية أيها الكولونيل ، انه لا مكان للقانون بيننا ، انما هى الحرب ، ألا تعلم انك ستضطر الى قتلنا جميعا أو أننا نحن سنضطر الى قتلكم جميعا اذا حانت الفرصة ، لقد حطمتم القانون بمجيئكم وأحللتم مكانه قانونا آخر .. ألا تعلم هذا ؟

فقال لانسر « هل لى أن أجلس ؟ » .

— ولماذا تستأذن ؟ هذه مخادعة أخرى ، فانك تستطيع اذا شئت أن تأمر بى فأظل واقفا .

فقال لانسر « لا ، فاننى — سواء صدقتنى أو لا — أقدرك وأجل منصبك » ثم أسلم جبهته الى كفه لحظة وقال « أنت ترى يا سيدى أن رأيى — أنا ذلك الرجل الذى بلغ سنا معينا ويحمل عواطفه الخاصة — رأيى هذا لا قيمة له ، فلعلنى متفق معك فى الرأى ولكن هذا لن يكون له أقل أثر ، ان الخطوط العسكرية والسياسية التى أعمل فى نطاقها ذات اتجاهات ثابتة ، وتطبيقات محددة » .

فقال أوردن « ان هذه الاتجاهات وتطبيقاتها قد ثبت خطؤها فى كل حالة امتحنت فيها منذ بدء الخليقة » .

وضحك لانسر بمرارة قائلا « أنا — ذلك الفرد ذو العواطف الخاصة — قد أوافقك الرأى ، بل قد أزيد ان الاتجاهات الناشئة عن العقلية العسكرية عاجزة أن تفهم أو ترى الا القتل ، فهو وظيفتها الوحيدة . ولكننى هنا لست ذلك الانسان الذى يخضع للعواطف . فلابد لعامل المنجم أن يقتل علنا ، فالنظرية ان الآخرين يجب أن يكبحوا جماح أنفسهم عن قتل رجالنا . » فقال أوردن « لا حاجة بنا للكلام اذن » .

— بل لابد لنا أن نتكلم ، ولابد لك أن تساعدنا .

فسكت أوردن لحظة ثم قال « سأخبرك ما أنا فاعل ، كم هم أولاء الذين يحملون المدافع الرشاشة التى قتلت

جنودنا ؟ » فقال لانسر « لا أظنهم يزيدون عن العشرين فيما أعتقد » .

— حسنا جدا ، اذا رميتهم بالرصاص ، سأحكم على موردن بالاعدام .

فقال الكولونيل « أظنك لا تجد » ؟

— بل أجد .

— ان هذا لا يمكن تحقيقه وأنت تعلم .

فقال أوردن « نعم أعلم ، وما تطلبه أنت لا يمكن تحقيقه أيضا » فقال لانسر « أظننى أعرف طريقى ، فان كوريل سيكون عمدة لا محالة » ثم رفع بصره فى سرعة وقال « هل ستشهد المحاكمة ؟ » .

— نعم سأشهدها ، حتى لا يحس الكس بالوحدة .

فنظر لانسر اليه وابتسم فى حزن قائلا « ان مهمتنا ثقيلة ، أليس كذلك » فقال العمدة « انها لثقيلة ، ومستحيلة التحقيق ، انها المهمة الوحيدة فى العالم التى لا يمكن انفاذها » .

— وما هى ؟

— أن نداوم على تحطيم الروح فى الانسان .

ومالت رأس أوردن قليلا تجاه المنضدة وقال دون أن يرفع بصره « لقد بدأ الجليد يتساقط ، انه لم ينتظر المساء ، انى أحب تلك الرائحة الباردة الحلوة التى يشيعها الجليد .

كانت الساعة الحادية عشرة وكان الثلج يتساقط بغزارة فى لفحات هينة متلاحقة حتى لم يكن يرى من السماء شىء على الاطلاق ، وكان الناس يخبون تحت الثلج المتساقط ، وكان الجليد متراكما أمام أبواب المنازل وفوق التمثال المقام فى الميدان العام وعلى القضبان الحديدية الممتدة من المنجم الى الميناء ، حتى لقد كانت عربات الفحم تنزلق وهم يدفعونها على القضبان .

وكانت تغشى المدينة ظلمة أكثر قتاما من السحابة السوداء والمدينة غارقة فى كآبة يبعثها حقد كالح متكاثر ، لم يكن الناس يتلبثون فى الشوارع وانما هم يسارعون الى أبواب المنازل يدخلونها ثم تقفل الأبواب من خلفهم ، ثم يخيل للرائى ان ثمة عيونا تتلصص من وراء الستائر ، فاذا مر جنود الاحتلال ، أو رقيبهم خلال الشارع الرئيسى ، ثبتت العيون

عليه باردة ساخطة . وكان الناس يقصدون الى الحوانيت ليشتروا حاجيات قليلة لغدائهم ، فما كانوا يمكثون الا ريثما يطلبون الشيء ويدفعون ثمنه ويأخذونه بغير تحية يلقونها أو ينتظرونها .

وفى غرفة الاستقبال من القصر الصغير ، كانت الأنوار مضاءة ترتمى على الجليد المتساقط خارج النافذة ، وكانت جلسة المحاكمة منعقـدة ، وكان لانسر جالسا على رأس المنضدة ، وقد جلس هنتر الى يمينه وبجانبه توندر ثم الكابتن لوفت وقد وضع أمامه كومة من الورق .

وفى الجـانب الآخر جلس العمـدة أوردن على يسار الكولونيل ويليه پراكل وقد أخذ يعبث بقلمه على ورقة أمامه وبجانب المنضدة وقف حارسان يحملان بنادق على كتفيهما وخوذات على رأسيهما أشبه ما يكونان بالنصب الخشبية وبينهما وقف الكس موردن ، شاب ضخم ذو جبهة ضيقة وعينين غائرتين فى محجريهما ، وأنف طويل مدبب ، وذقن حازم وفم واسع حساس ، عريض الكتفين ملفوف الوسط ، تتدلى يداه المصفدتان أمامه تتشابكان حينا وتنفصمان حينا .

كان يرتدى سروالا أسود ، وقميصا أزرق مفتوح الصدر ومعطفا أسود عراه البريق من كثرة اللبس .

وأخذ الكابتن لوفت يقرأ من الورق الموضوع أمامه « وحينما أمر أن يعود الى العمل أبى أن ينفذ الأمر ، وحين تكرر الأمر ، هاجم السجين الكابتن لوفت بمعول كان يحمله ، فوضع الكابتن بنتيك جسمه بينهما » .

وسعل العمدة أوردن . وعندما توقف لوفت عن القراءة قال أوردن « أقعد يا الكس فليأته أحدكما بكرسى أيها الحارسان » واستدار الحارس وجذب كرسيا دون مناقشة وقال لوفت « جرت العادة أن يقف السجين » فقال أوردن « دعه يجلس ، فلن يعرف أحد انه جلس الا نحن ، وتستطيع أن تكتب فى تقريرك انه ظل واقفا » فقال لوفت « لم تجر العادة بتزوير التقارير » فأعاد أوردن قوله « أقعد يا الكس » وجلس الشاب الضخم ، وألقى يديه المصفدتين القلقتين بين رجليه وبدأ لوفت يقول « ان هذا مخالف لكل .. » فقال الكولونيل « دعه جالسا » .

وجلا الكابتن لوفت حنجرته وراح يتابع قراءة التقرير « وضع الكابتن بنتيك جسمه بينهما فهوت على رأسه ضربة حطمت جمجمته » ثم قال « ان التقرير الطبى مرافق للأوراق أتريدنى أن أقرأه » فقال لانسر « لا حاجة اليه ، اختصر الاجراءات ما استطعت » .

— ان كثيرا من جنودنا شهود على هذه الحقائق ، وشهاداتهم مرافقة للأوراق ، ان هذه المحكمة العسكرية ترى ان المتهم مذنب وجريمته القتل ، وتطلب الحكم عليه بالاعدام أتريدنى أن أقرأ شهادة الجنود ؟

وتنهد لانسر قائلا « لا » ثم استدار الى الكس « انك لا تنكر انك قتلت الكابتن ، أليس كذلك فابتسم الكس فى حزن وقال « لقد ضربته ولا أعلم انى قتلته » وقال أوردن

« أحسنت يا الكس » والتقت عيون المتهم والعمدة فى نظرة صداقة . وقال لوفت « أتريد أن تشير الى أن قاتله شخص آخر » فقال الكس « لا أدرى ، كل ما أعرفه اننى ضربته ، ثم ضربنى شخص ما » فقال الكولونيل لانسر « هل تريد أن تقدم أى توضيح للمحكمة ، أنا لا أعرف شيئا يمكن أن يغير الحكم ولكننا سنستمع » فقال لوفت « اننى بكل احترام أقرر انه ما كان للكولونيل أن يقول هذا ، فانه يعنى أن المحكمة غير محايدة » فضحك أوردن فى خشونة ونظر اليه الكولونيل فى ابتسامة باهتة ثم كرر سؤاله « هل تريد أن تقدم أى توضيح للمحكمة ؟ » .

ورفع الكس يده ليشير بها ، فارتفعت يده الأخرى معها فبدأ عليه الارتباك وأعاد يديه الى مكانهما وقال « كنت ثائرا ، فأنا رجل متوفز الأعصاب ، لقد أمرنى أن أعمل ، وأنا رجل حر ، فثار ثائرى وضربته ، واعتقد اننى ضربته بعنف ، ولم أكن أقصده بضربتى » ثم أشار الى لوفت قائلا « لقد كان هذا من أريد أن أضربه ، نعم ، هذا الرجل » وقال لانسر « انه لا يهمنا أيهما أردت أن تضرب ، فكلهم عندنا سواء ، هل أنت آسف على ما فعلت » ثم قال لنفسه « فان أسفه ذو قيمة لنا فى التقرير » فقال الكس « آسف ؟ لا أنا غير آسف لقد أمرنى أن أعود الى العمل .. أنا الرجل الحر ، لقد عودت أن أكون ذا مكانة فى قومى ، وقد قال لى انه حتم على أن أعمل » .

— ولكن اذا صدر الحكم باعدامك ، ألا يدعوك هذا الى الأسف ؟

وطأطأ الكس رأسه وحاول أن يخلص الى ضميره ثم قال « لا ، أتعنى هل أعود الى ما فعلته ؟ » .

— هذا ما أعنى .

فقال الكس فى تفكير « لا ، يخيل الى اننى غير آسف » فقال لانسر « أذكر فى التقرير ان المتهم قد غمره الندم . انه لا محيد عن هذا الحكم » ثم قال لالكس « أتفهم ؟ لا خيار للمحكمة فى الطريق الذى تسلكه ، المحكمة ترى انك مذنب، والحكم عليك هو أن ترمى بالرصاص فى الحال ، أنا لا أدرى سببا يدعو الى تعذيبك أكثر من هذا ، هل هناك شىء نسيناه يا كابتن لوفت » فقال أوردن « لقد نسيتنى » ثم وقف ودفع كرسيه الى الخلف وخطا الى الكس ووقف الكس باحترام أرساه فى نفسه التعود الطويل وقال أوردن « اننى العمدة المنتخب يا الكس » .

— أعرف هذا يا سيدى .

— هؤلاء الرجال محتلون يا الكس ، لقد اغتصبوا بلادنا بالمفاجأة والخيانة والعنف .

فقال الكابتن لوفت « يجب ألا يسمح بهذا يا سيدى » فقال لانسر « اسكت ، أيهما تفضل ، أن يقال هذا الكلام فيسمع ، أم أن يدور همسا » فتابع أوردن حديثه وكأن أحدا

لم يقاطعه « لقد اضطرب الناس عند مجيئهم ، واضطربت أنا أيضا ، لم نكن نعرف ماذا نفعل بل لم نكن نعرف كيف نفكر ، ان ما فعلته هو أول موقف ايجابى ، ان غضبتك الخاصة انما هى بداية غضبة الشعب جميعا ، أعلم انهم يقولون فى البلدة اننى أتعاون مع هؤلاء القوم ، انى أستطيع أن أظهر البلدة على حقيقة موقفى ، أما أنت ففى طريقك الى الموت ، وأريدك أن تعرف فى أى جانب أنا » .

وأسقط الكس رأسه ثم رفعها وقال « انى أعرف يا سيدى » فقال لانسر « هل الكتيبة معدة ؟ » .

— انها بالخارج يا سيدى .

— ومن قائدها ؟

— الملازم توندر يا سيدى .

ورفع توندر رأسه وقد تصلب فكه ، وأمسك أنفاسه .

وقال أوردن فى رفق « أخائف يا الكس ؟ » فقال الكس « نعم يا سيدى » .

— لا أستطيع أن أنصحك ألا تخاف ، فقد كنت خليقا أن أخاف أنا أيضا ، وهكذا كان يخاف آلهة الحرب الصغار هؤلاء .

فقال لانسر « أدع كتيبتك » فقصد توندر الى الباب فى سرعة وقال « انها هنا يا سيدى » وفتح الباب على مصراعيه

حتى بدت الخوذات من خلاله ، فقال أوردن « امض يا الكس ، واعلم ان هؤلاء الناس لن يقر لهم قرار ، لا قرار لهم على الاطلاق حتى يرتحلوا أو يموتوا ، انك ستجعل من جموع الشعب فردا واحدا ، انها حقيقة محزنة ، ولكنها قد تحمل بعض العزاء اليك ، اذ لا سبيل الى عزاء أكبر ، لن يقر لهم قرار على الاطلاق » وانحنى العمدة أوردن عليه وطبع قبلة على جبينه ثم قال « وداعا يا الكس » .

وقبض الحراس على ذراع الكس ، بينما أقفل الشاب عينيه فى حزم ، ونفذ به الحراس من الباب واستدار أفراد الكتيبة ، وحملتهم أقدامهم بعيدا عن المنزل الى حيث يسقط الثلج ويطغى على أصوات أقدامهم .

وخيم الصمت على القوم الجالسين حول المائدة ، ونظر أوردن تجاه النافذة فرأى فى زجاجها قطعة مستديرة أزالت عنها الجليد يد عاجلة [1] ، فحدق فيها عاجبا ثم تحول نظره الى الخارج فى سرعة وقال للكولونيل « أرجو أن تكون مقدرا لخطورة عملك » وجمع الكابتن لوفت أوراقه بينما سأله لانسر « هل ستنفذون الحكم فى الميدان العام يا كابتن » فقال لوفت « نعم يا سيدى فى الميدان العام فلابد أن يكون التنفيذ علنا » وقال أوردن « أرجو أن تكون مقدرا لهذه

---

(١) المؤلف يقصد بذلك أن بعض الناس كانوا ينظرون خفية من خلال النافذة .

الخطورة » فقال الكولونيل « سواء كنت مقدرا أو لا فانه عمل لابد أن يتم » .

وعاد الصمت يخيم على الحجرة ، وأخذ كل منهم يتسمع ولم يطل بهم التسمع ، فقد جاء من بُعد صوت انطلاق البارود وتنهد لانسر من أعماقه . وأسلم أوردن جبهته الى يده وملأ رئتيه بالهواء ، ثم سمعت صيحة بالخارج ، وتهشم زجاج النافذة على أرض الغرفة ، وذار الملازم پراكل حول نفسه ، ووضع يده على كتفه وأخذ يحدق فى يده هذه ، وهب لانسر واقفا وصاح « اذن فقد بدءوا ، هل اصابتك خطيرة يا پراكل » فقال پراكل « كتفى » ، واتخذ لانسر موقف القائد وقال « ستجد آثارا على الجليد يا كابتن لوفت وأريدك الآن أن تبحث عن الأسلحة النارية فى كل المنازل واقبض على كل فرد تجد عنده سلاحا ، والق به فى السجن كرهينة » ثم قال للعمدة « أما أنت يا سيدى فسنجعل منك رهينة نحمى بها أنفسنا ، وأرجو أن تفهم ما نقصد اليه ، ان القتيل الواحد منا سنقتل فى مقابله خمسة ، أو عشرة أو مائة رجل منكم اذا اقتضى الأمر » فقال أوردن فى هدوء « هيه أيها الرجل ذو العواطف » .

وتوقف لانسر فلم يكمل أوامره ، ثم رفع بصره فى بطء الى العمدة ، ومرت لحظة فهم فيها كل منهما الآخر . ثم اعتدل لانسر فى وقفته وقال فى حدة « بل رجل بلا عواطف »

ثم قال « أريد أن تأتوا بكل سلاح فى البلدة ، وبكل شخص يقاوم ، واسرعوا قبل أن تزول آثار الأقدام » .

ولبس الضباط خوذاتهم ، وهيأوا غداراتهم ، وبدءوا يخرجون وذهب أوردن الى الشباك ذى الزجـاج المهشم ثم قال فى حزن « تلك الرائحة الباردة الحلوة التى يشيعها الجليد » .

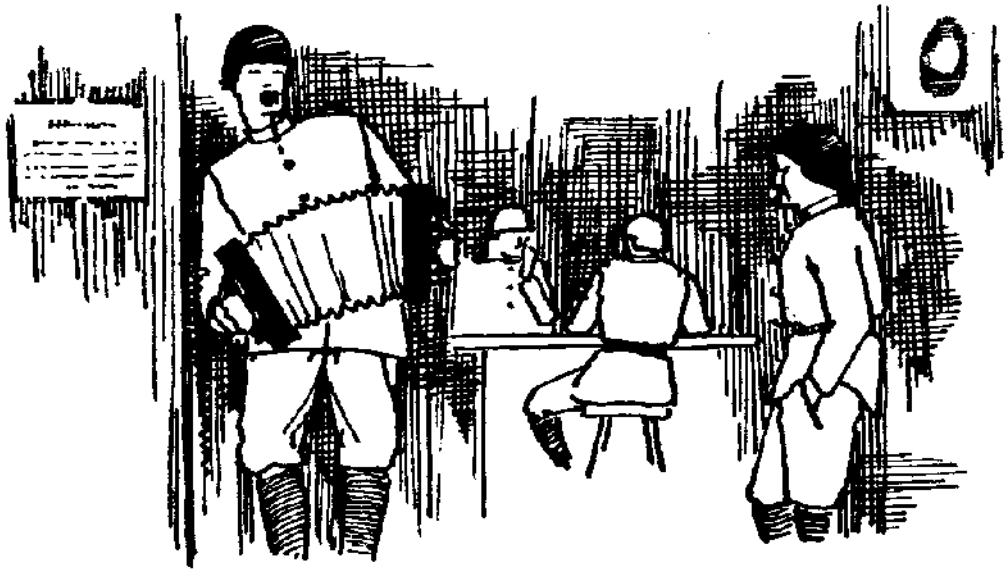

مرت الأيام والأسابيع متثاقلة واكتملت فى بطء شهورا عقيمة ، وهبط الثلج ثم ذاب ثم هبط ثم ذاب ثم هبط أخيرا وتماسك ، واكتست أبنية البلدة السوداء بياضا يتخذ شكل الأجراس والقبعات والأقواس ، وكانت ثمة ممرات تخترق الجليد الى مداخل البيوت ، وفى الميناء كانت مراكب الفحم ترسو فارغة وتقلع مليئة ، ولكن الفحم لم يكن يترك الأرض فى يسر ، فقد كان عمال المنجم الأكفاء يرتكبون الأخطاء ، فالكآبة تغشاهم والبطء يسود أعمالهم ، والآلات تنكسر ثم يقتضيهم اصلاحها وقتا طويلا .

كان شعب البلدة المحتلة ساكنا فى تحفز لانتقام خفى بطىء ، وكان معظم الخونة الذين عاونوا المحتلين يؤمنون انهم فعلوا ما فعلوا ليصلوا ببلادهم الى حكم أفضل وعيش رخى ، وقد اكتشف هؤلاء ان السلطة التى خولت لهم غير مأمونة الجانب ، فالناس الذين يعرفونهم ينظرون اليهم فى اشمئزاز ولا يحادثونهم أبدا .

كان الموت يحـوم فى الجـو مترقبا منتظرا ، وكانت الحوادث تقع على الخط الحديدى الذى يخترق الجبال واصلا بين البلدة الصغيرة وبين بلاد الوطن الأخرى ، فكتل الجليد تنهار على القضبان ، وتظل القطارات واقفة حتى يختبر الطريق . وكان الناس يعدمون ليردع غيرهم ، ولكن لا رادع ، وكانت فئات الشباب تهرب الى انجلترا من حين الى آخر .

وألقى الانجليز القنابل على منجم الفحم فأصابته ببعض أضرار وأصابت بعضا من الأصدقاء والأعداء على السواء ، ثم لم يفد هذا فى شىء .

ونمت العداوة الباردة مع الشتاء ، تلك العداوة الصامتة الصارمة ، تلك العداوة المتحفزة .

كان الغذاء خاضعا فى توزيعه للسلطات ، فهو مبذول للمطيع ممتنع على العاصى ، وهكذا تحول الشعب جميعه الى طاعة باردة ، ولكن كان هناك سبب يحول دون منع الغذاء ، فالعامل الجائع لا يستطيع أن يخرج الفحم ، فهو لا يطيق أن يحمله ويدفعه .

وكانت الكراهية عميقة فى أعين النـاس وان حجبتها الظواهر .

وهكذا أصبح المحتل محاصرا ، فقد أحاط الأعـداء الصامتون بجيش الاحتلال ، فأصبح كل فرد من هذا الجيش وهو لا يستطيع أن يغفو عن الحراسة ولو للحظة واحدة ، فان غفا اختفى ، واستقبلت جثته هوة من الجليد ، فان ذهب

وخذه ليزور امرأة اختفى واستقبلت جثته هوة من الجليد ، فان شرب خمرا اختفى أيضا .

فان غنّى رجال القوات العسكرية أو رقصوا، غنوا ورقصوا وحدهم . وعلى الأيام توقف الرقص وبقى لهم الغناء حنينا الى الوطن . كان حديثهم عن أقاربهم وأصدقائهم الذين يحبون ، فقد كان حنينهم ينبعث الى المحبة والدفء . فالرجل لا يطيق أن يكون جنديا الا لعدد محدود من ساعات اليوم ، وعدد محدود من شهور العام ، ثم هو يريد أن يعود انسانا من جديد ، فهو يهفو الى النساء والشراب والموسيقى والضحك والحياة الناعمة ، فحين يمتنع عليه هذا الذى يهفو اليه يصبح حنينه اليه عنيفا لا يقاوم .

فتفكير الجنود يدور دائما حول الوطن فقد أصبحوا يكرهون هذا المكان الذى احتلوه فهم يقطعون ما بينهم وبين الناس كما يقطع الناس ما بينهم وبين الجنود ، وعلى الأيام بدأ شيء من الخوف ينمو فى نفوس الغزاة ، خوف لا سبيل الى دفعه ، فهم لا يجدون سبيلا الى الطمأنينة أو سبيلا الى العودة ، انهم يخشون أن ينفرد بهم الشعب فى الجبال فيصيدهم كالأرانب ، فالمهزومون لا يهدأ لهم ثأر .

كان جنود الحراسة ان سمعوا ضحكا ، أو رأوا ضياء خفوا اليه كمن ينشد الدفء ، حتى اذا اقتربوا توقف الضحك وتلاشى الدفء الذى هفو اليه ، وعرا القوم برود واذعان فاذا شم الجنود رائحة الطعام الساخن المنبعثة من المطاعم

الصغيرة ، دخلوا وأمروا بطعام ساخن ثم هم يجدونه أما كثير الملح أو شديد الحرافة .

وكان الجنود يقرأون أنباء وطنهم ، وأنباء الاحتلال فى البلاد الأخرى وكانت الأنباء دائما طيبة ، فكانوا يصدقونها بعض الحين ، ثم ما يلبثون أن ينكروها جميعا ، كان كل رجل منهم يحمل الفزع فى قلبه فهم يعتقدون انه اذا تحطم الوطن فسيخفى هذا النبأ عنهم ، وتفوتهم فرصة النجاة ، فان هذا الشعب الذى يحتلون بلاده ، لن يتركهم يفلتون ، وسيقضى عليهم جميعا ، انهم يذكرون ذلك القصص عن رجالهم الذين كانوا ينسحبون من بلچيكا ومن روسيا ، والمثقفون منهم يذكرون تفصيل ذلك الانسحاب الملىء بالذعر والألم الذى تم فى موسكو ، يوم لطخت بدمائهم كل شوكة يملكها فلاح ، ويوم عفن الثلج بأجسامهم .

وهم يعلمون انهم ملاقون نفس المصير .. يعلمون ذلك وهم يقعقعون بأسلحتهم ، ويعلمونه وهم فى أوقات راحتهم ، بل ويعلمونه وهم فى اغفاءة نوم طويل . ولقد كان نومهم قلقا ويومهم اضطرابا ، فهم يوجهون الى ضباطهم أسئلة لا يجيبونها لأنهم لا يعرفون جوابها ، فلا هم يخبرون بها ، ولا هم يصدقون ما تجىء به التقارير .

وهكذا أصبح المنتصرون يخشون المهزومين ، فأعصابهم متوفزة حتى ليطلقوا الرصاص على الظلال حين تبدو لهم فى ظلام الليل . يحيط بهم ذلك الصمت الرهيب الراجف

فلا يفارقهم . وهكذا فقد ثلاثة من الجنود صوابهم خلال أسبوع ، فهم يبكون ليل نهار حتى لقد اضطرت السلطات أن ترسلهم الى بلادهم ، وقد كان الآخرون خليقين أن يصابوا بالجنون هم أيضا لو لم يسمعوا ان الموت الرحيم ينتظر المجانين فى الوطن . والتفكير فى موت رحيم أمر يثير غاية الرعب .

زحف الخوف على الرجال فى معسكراتهم فملأهم بالحزن ، وزحف الخوف على جنود الداوريات فى الحراسة فملأهم بالقسوة .

واستدار العام ، وأمسى الليل طويلا ، فالظلام يخيم منذ الثالثة من بعد الظهر ثم لا ضوء حتى التاسعة من الصباح ، فلم تكن الأضواء البهيجة تتلألأ على الجليد فى الطرقات ، فالقانون يقضى أن تسوّد النوافذ حتى لا ترى قاذفات القنابل ضوءا ، ومع ذلك فانه حين جاءت قاذفات القنابل الانجليزية كانت ثمة أضواء تومض بجوار منجم الفحم . وفى بعض الأحيان كانت الدوريات تطلق النار على من يحمل مصباحا يدويا ، وقد أطلقت النار مرة على فتاة تحمل فانوسا ، ولكن هذا لم يفد فى شىء ، لم يكن اطلاق النار دواء ناجحا لشىء على الاطلاق .

وكان الضباط مرآة لرجالهم ، فان تدريبهم العسكرى كان أكثر اكتمالا فهم أكثر ضبطا لأعصابهم من الجنود ، ولكن نفس المخاوف كانت أكثر تعمقا فى نفوسهم ، وكان نفس الحنين الى الوطن أشد احتباسا فى قلوبهم ، وهم يحملون

مسئولية مضاعفة ، فالشعب المحتـــل يتسقط أخطاءهم ، والجنود تحت امرتهم يترقبون لحظات ضعفهم ، وهم بين الاثنين يحمـــلون قلوبا توشك أن تنفجر . كان المحتلون يعانون حصـــارا تعسفيا عنيفا ، وكان الجميع جيشا محتلا وشعبا هزيما يعلمون المصير المنتظر عند أول تصدع يحدث .

وكان واضحا ان الطمأنينة قد زايلت الطابق الأعلى من قصر العمدة ، فالأوراق السوداء لصيقة باحكام على النوافذ وأكوام صغيرة من المعدات الثمينة متناثرة فى الغرفة ، فهى معدات وآلات لا يمكن اهمالها ، فبينها النظارات والخوذات والكمامات .

وكان بعض التهاون فى النظام واضح المعالم ، فقد كان الضباط يعلمون انه لابد لهم من بعض تهاون فى شىء ما والا انهار كل شىء .

وكان فانوسان غازيان مستقرين على المنضدة يبعثان ضوءا وهاجـــا ، وظلالا ضخمة على الجدران وحسيسا (١) ينسرب فى جنبات الغرفة .

كان الماجور هنتر يواصل عمله ، وكانت لوحة رسمه معدة الآن على الدوام ، فقد كانت القنابل تتلف عمله بمجرد انتهائه من تنفيذه ، وما كان هذا ليحزنه كثيرا فقد كانت أعمال البناء بالنسبة للماجور هنتر هى الحياة كلها ، وقد

(١) الحسيس صوت النار .

كانت عمليات البناء التى تنتظره أكثر مما يطيق أن يرسم أو ينفذ ، فهو يجلس الى لوحة رسمه ومن خلفه الضوء ، تتحرك مسطرته الهندسية فى جوانب اللوحة ، وقلمه بيده لا يهدأ عن العمل .

وكان الملازم پراكل ما يزال معلقا ذراعه على صدره وقد جلس الى كرسى خلف المائدة القائمة فى وسط الحجرة يقرأ جريدة مصورة وعلى طرف المنضدة كان الملازم توندر يكتب خطابا ويرفع رأسه عن الخطاب من حين الى آخر ويحملق فى السقف عله يجد ثمة كلمات لخطابه .

وقلب پراكل صفحة من المجلة المصورة وقال « أستطيع أن أقفل عينى وأظل أرى كل دكان فى هذا الشارع » وتابع هنتر عمله وزاد توندر خطابه بضعة كلمات ، وتابع پراكل حديثه « انهناك مطعما يقع خلف هذا المنزل تماما ، لا تستطيع أن تراه فى الصورة ، اسمه مطعم بيردن » وقال هنتر دون أن يرفع بصره « أعرف هذا المطعم ، فهو يقدم لحما طيبا » فقال پراكل « يا له من لحم ، كل طعامهم كان طيبا ، انهم لا يقدمون شيئا رديئا على الاطلاق ، أما قهوتهم .. » ورفع توندر بصره عن خطابه وقال « انهم لا يقدمون القهوة الآن ولا شرائح اللحم » فقال پراكل « لا أعرف حالهم الآن ، ولكنهم كانوا يقدمون أطيب الطعام ، وسيقدمونه فيما بعد ، وكانت هناك خادمة .. » ثم رسم شكلها فى الهواء بيده ..

يده السليمة ثم قال « شقراء » ثم عاد ينظر فى المجلة وقال « كانت لها أعجب عينين ، تشع منها نظرة مخضلة دائما كأنما قد انتهت قريبا من بكاء أو ضحك » ثم حدق الى السقف وقال فى همس « كنت أخرج معها ، كانت رائعة ، انى أعجب لماذا لم أكن أكثر من الخروج معها ، أتراها ما زالت هناك » وقال توندر فى كآبة « ما أظنها لعلها تعمل فى مصنع » وضحك پراكل وقال « أرجو ألا يكون نظام البطاقات قد طبق على فتيات الوطن أيضا » فقال توندر « ولم لا » فقال پراكل فى مداعبة « انك لا تعبأ كثيرا بالفتيات، أليس كذلك ، بل أخالك لا تعبأ بهن على الاطلاق » فقال توندر « اننى أريد منهن أن يؤدين وظيفتهن التى خلقن من أجلهـــا ، ولا أحب أن ينتهبن حياتى كلها » فقال پراكل « يخيـــل الى انهن دائما ينتهبن حياتك جميعا » فحاول توندر أن يغير موضـــوع الحديث فقال « انى أكره هذه الفوانيس اللعينة ، متى تصلح مولد الكهربا يا ماجور » ورفع الماجور هنتر بصره عن لوحته ببطء وقال « كان يجب أن يكون صالحا الآن ، فقد كلفت عمالا مهرة باصلاحه ، واعتقد اننى سأضاعف الحراسة عليه منذ اليوم » فسأل پراكل « هل قبضت على من أتلفه ؟ » فقال هنتر فى استياء « أرجح أن يكون واحدا من خمسة ، وقد قبضت على الخمسة ، انه من أيسر الأمور أن تفسد مولد كهربا لو عرفت الوسيلة ، ما عليك الا أن ترفع منه جزءا

ولسيتولى هو افساد نفسه ، على كل حال الضوء منتظر فى أى وقت الآن » .

وظل پراكل يقلب صـــفحات مجلته وقال « ترى متى نتخفف من أعباء هذا العمل ، متى نزور بيوتنا ولو فترة وجيزة ، ألا تحب أن تذهب الى البيت وترتاح يا ماجور » ورفع هنتر نظره عن عمله وقد اكتسى وجهه باليأس برهة وقال « نعم بالطبع » ثم عاد الى طبيعته وقال « لقد بنيت مخزن هذا الخط الجانبى أربع مرات ، ولا أدرى لماذا تنقذف القنابل على هذا المخزن بالذات ، لقد سئمت هذا الخط ، فأنا مضطر الى تغيير اتجاهه فى كل مرة حتى أتفادى أفواه البراكين التى لا يتسع الوقت لردمها ، وتجمد الأرض غاية فى الصلابة ، يبدو أن أمامنا عملا مثيرا » .

وفجأة انبعثت الأضواء الكهربية ، ومد توندر يده فى حركة لاشعورية وأطفأ الفانوسين ، وانقطع الحسيس من الغرفة وقال توندر « الحمد لله ، ان أعصابى تضيق بهذا الحسيس ، انه يجعلنى أظن ان ثمة همسا يدور » وطوى الخطاب الذى كان يكتبه وقال « انه لأمر عجيب ، ان معظم الخطابات لا تصل الينا فلن يصلنى فى هذين الأســـبوعين الا خطاب واحـــد » فقال پراكل « ربما ليس هناك من يكتب لك » فقال توندر « ربما » ثم تحول الى الماجور وقال « اذا حدث أى شىء .. فى الوطن .. أعنى .. أتعتقد انهم

سيخبروننا .. أى حادث أقصد .. حادث قتل أو ما يشبه ذلك » فقال هنتر « لا أدرى » وتابع توندر حديثه « اذن ، فاننى أريد أن أخرج من هذا الجحر الذى حرم من رحمة الله » فتدخل پراكل فى الحديث قائلا « أظنك سترحل عن هنابعدالحرب؟» ثم راح يقلد صوت توندر قائلا « اذا ضممنا أربعا أو خمس مزارع بعضها الى بعض لهيأنا مكانا أنيسا يصلح لأسرة أن تتخذ منه موطنا ، ألم تكن هذه أمنيتك ، ألم تكن تتمنى أن تصبح حاكما صغيرا فى الوادى .. شعب طيب سمح ، حقول خضراء وغزلان رشيقة ، ألم تكن هذه هى أمانيك يا توندر » .

وبينما كان پراكل يتكلم سقطت يد توندر ثم قبض على صدغيه بيديه وقال فى انفعال شـــديد « اسكت ، لا تقل مثل هذا الكلام ، هؤلاء القوم ، هؤلاء القوم المرعبون ، هؤلاء القوم الباردون ، انهم يأبون أن ينظروا الينـــا » ثم ارتعد وهو يقول « انهم يأبون أن يتكلموا ، انما هم يجيبون وكأنهم موتى ، وهم مطيعون ، أولئك القوم المرعبون والفتيات أيضا باردات فكأنهن الجليد » .

وسمعت طرقة هينة على الباب ثم دخل چوزيف يحمل وعاء مليئا بالفحم واخترق الغرفة صامتا ، ثم وضع الوعاء على الأرض بهدوء كامل حتى لم يصدر عنه أى صـــوت ثم استدار دون أن ينظر الى أحد فى الغرفة واتجه الى الباب

ثانية فقال پراكل فى صوت مرتفع « چوزيف » فاستدار اليه چوزيف دون اجابة ودون أن ينظر اليه ثم انحنى انحناءة يسيرة فقال پراكل فى نفس الصوت المرتفع « هل لديك أى نوع من أنواع النبيذ يا چوزيف » فهز چوزيف رأسه نفيا فبدأ توندر يتكلم وهو جالس الى المنضدة ، وكان وجهه ثائرا بالغضب فهو يصيح قائلا « أجب أيها الخنزير ، أجب فى كلمات » ولم يرفع چوزيف بصره بل تكلم بصوت رتيب قائلا « لا يا سيدى ، لا نبيذ عندنا » فقال توندر فى ثورة بالغة « ولا أى نوع ؟ » وخفض چوزيف بصره وتكلم فى نفس الطريقة الرتيبة .. « ولا أى نوع يا سيدى » ثم وقف فى جمود تام فقال توندر « ماذا تريد ؟ » .

— أريد أن أذهب يا سيدى .

— اذن فاذهب .. اذهب .. لعنك الله .

واستدار چوزيف وترك الغرفة صامتا ، وأخرج توندر منديلا من جيبه ومسح به وجهه . ورفع هنتر بصره اليه وقال « كان يجب ألا تتيح له أن ينتصر عليك فى هذه السهولة » فجلس توندر على كرسيه وأمسك بصدغيه وقال فى انهيار « أريد امرأة ! .. أريد أن أذهب الى البيت .. أريد امرأة .. فى هذه المدينة فتاة .. فتاة رائعة .. أراها دائما .. انها شقراء الشعر ، مقيمة بجانب مخازن الحديد القديم .. أريد هـذه الفتاة » فقال پراكل « تحكم فى نفسك ، واضبط أعصابك »

وفى هذه اللحظة انطفأ النور ثانية وخيم الظلام على الغرفة ، وتكلم هنتر بينما أعواد الثقاب تحتك لتضىء الفوانيس ، فقال هنتر « لقد ظننت اننى قبضت عليهم جميعا ، لابد أن أحدهم قد استخفى عنى ولكننى لا أطيق أن أظل أبحث طول الوقت ان لدى من الرجال الأكفاء من يؤدى عنى هذا العمل » وأضاء توندر الفانوس الأول ثم أتبعه بالثانى، وتكلم هنتر فى حزم الى توندر « ان كان لابد لك أن تتكلم فاجعل كلامك الينا نحن ، لا تدع الأعداء يسمعونك تتكلم على هذا النحو ، فليس أحب اليهم من أن يعرفوا ان أعصابك آخذة فى الانهيار ، لا تدع الأعداء يسمعونك » فجلس توندر ثانية وكان الضوء منصبا على رأسه وقد عاد الحسيس يملأ الغرفة فقال « تلك هى المشكلة ، الأعداء يسدون علينا أقطار الحياة ، فكل رجل وكل امرأة ، بل وكل طفل عدو لنا ، الأعداء يسدون علينا أقطار الحياة ، تطل رؤوسهم من أبواب المنازل ، وتتسمع وجوههم البيضاء من وراء الستائر ، لقد هزمناهم ، لقد انتصرنا فى جميع الميادين ، وانهم ليصبرون ويطيعون ، وانهم لصابرون ، ان نصف العالم ملكنا . أليست هكذا تسير الأمور فى البلاد الأخرى يا ماجور » فقال هنتر « لا أدرى » فقال توندر « تلك هى المشكلة ، اننا لا ندرى ، التقارير .. كل شىء فى يدنا ، البلاد المحتلة ترحب بجنودنا ، وتحمى النظام الجديد » ويتغير صوته آخذا طريقه الى

الخفوت « ماذا تقول التقارير عنا ؟ أهى تقول اننا محل ترحيب وحب ، نسير على الطرقات المفروشة بالأزهار ، يا لنا من هؤلاء القوم المرعبين المنتظرين فى الجليد » فقال هنتر « الآن وقد أفرغت ما بصدرك ، أما تحس بتحسين » وكان پراكل يضرب المنضدة بقبضته وهو يقول « يجب ألا يتكلم على هذا النحو ، عليه أن يكبت هذه الأشياء فى دخيلة نفسه ، انه جندى ، أليس كذلك ، فليكن جنديا اذن » وفتح الباب بهدوء ودخل الكابتن لوفت وقد علق الثلج بخوذته وكتفيه وكانت أنفه محتقنة فى احمـــرار ، وياقة معطفه مرفوعة الى أذنيه ، وخلع توندر خوذته فتساقط الثلج على الأرض ، ثم أزال الثلج عن كتفيه وقال « يا لها من مهمة » فسأله هنتر « هل هناك متاعب أخرى ؟ » .

— المتاعب لا تنتهى ، أرى انهم أفسدوا المولد الكهربائى ثانية ، حسنا ، أظن اننى أصلحت الأمر فى المنجم مؤقتـــا على الأقل .

فسأله هنتر « فما متاعبك ؟ » .

— الأمور العادية التى تحدث لى ، بطء فى النزول الى المنجم ، وســـيارة معطـــلة ، وقد رأيت من عطلها ورميته بالرصاص ، أظن اننى عرفت علاج الموقف يا ماجور ، لقد فكرت مليا ، سأفرض على كل رجل كمية معينة من الفحم لابد له أن يستخرجها ، أنا لا أستطيع ارجاع الرجال والا عجزوا

عن العمل ، ولكننى أعرف الحل حالا ، فانه اذا لم تخرج كمية الفحم المفروضة فلا طعام لأسرة المقصر ، سنجعل الرجال يأكلون فى المنجم حتى لا يشركوا أهليهم فى طعامهم ، ان هذا سيعالج الموقف ، فليعملوا أو يمنع الطعام عن أولادهم ، ولقد أخبرتهم بذلك الآن .

— وماذا قالوا ؟

وضاقت عينا لوفت فى وحشية وقال « قالوا ! ؟ ومتى قالوا ؟! لم يقولوا شيئا ، لا شيء على الاطلاق ، ولكننا سنرى ان كان الفحم سيخرج الآن » وخلع معطفه وهزه ، وسقطت عينه على باب الدخول فرآه منفرجا عن فتحة صغيرة ، فتحرك الى الباب صامتا وفتحه فى سرعة ثم أقفله وقال « اعتقد اننى أقفلت هذا الباب باحكام عند دخولى » فقال هنتر « لقد فعلت » وكان پراكل ما يزال يقلب صفحات المجلة المصورة ، وعاد صوته طبيعيا ثانية وهو يقول « انها مدافع هائلة تلك التى نستعملها فى الشرق ، انى لم أر واحدا منها ، أرأيت أنت يا كابتن ؟ !! » فقال الكابتن لوفت « آه نعم » ، لقد رأيتها وهى تطلق ، انها رائعة لاشيء يقوى على الصمود لها » فقال توندر « هل سمعت أخبارا جديدة عن الوطن يا كابتن ؟ » فقال لوفت « سمعت قليلا من الأخبار » .

— هل كل شيء على مايرام هناك ؟

فقال لوفت « كل شيء عظيم ، فالجنود تتقدم فى كل مكان » .

— ألم ينهزم الانجليز بعد ؟

— انهم ينهزمون فى كل معركة .

— ويواصلون القتال

— بقليل من الغارات الجوية لا أكثر .

— والروس ؟

— لقد انتهى أمرهم .

فقال توندر فى اصرار « ولكنهم يقاتلون » .

— بقليل من المناوشات لا أكثر .

فسأله توندر « اذن فنحن قاب قوس من الانتصار ، ألسنا كذلك يا كابتن » ؟

— نعم اننا كذلك .

فنظر توندر اليه متفحصا وقال « أتصدق هذا الكلام يا كابتن ؟ أتصدقه فعلا ؟ » فتدخل پراكل قائلا « لا تدعه يعود الى هذا الحديث ثانية » فزمجر لوفت قائلا « لا أعرف ما تقصد اليه ؟ » فقال توندر « أعنى هذا ! اننا عائدون قريبا الى الوطن ، أليس كذلك » فقال هنتر « حسنا ان اعادة التنظيم ستقضى بعض الوقت ، فان النظام الجديد لا يمكن أن يستقر فى يوم واحد ، أيمكن هذا ؟ » فقال توندر « لعلها ستقتضى حياتنا جميعا » فقال پراكل « لا تدعه يعود الى هذا الحديث ثانية » فاقترب لوفت من توندر وقال « أيها الملازم

ان روح أسئلتك لا تعجبنى ، فأنا لا أرتاح الى روح الشك » فرفع هنتر نظره وقال « لا تقس عليه يا لوفت ، انه مجهد ، كلنا مجهدون » فقال لوفت « وأنا أيضا مجهد ، ولكننى لا أسمح للشك الخائن أن يتغلب على » فقال هنتر « لا تثر شيطانه ، أرجوك ، أتعرف أين الكولونيل ؟ » فقال لوفت « انه يكتب تقريره ، ويطلب الامدادات ، ان المهمة أكبر مما توقعنا » فسأل پراكل فى اضطراب « أيُجَاب طلبه للامدادات ؟ » .

— وكيف لى أن أعرف ؟

فابتسم توندر قائلا « الامدادات ! » ثم قال فى صوت خفيض « لعله يطلب البدل ، فنستطيع أن نذهب الى الوطن لفترة وجيزة » ثم قال مبتسما « لعلى أستطيع حينئذ أن أسير فى الشوارع ويلقى الناس الى بالتحية ثم يقولون انظروا ها هنا جندى ، ويفرحون لى ويرحبون بى ، ويسير حولى الأصدقاء فأستطيع أن أدير ظهرى للناس دون أن أخشى القتل » فقال پراكل « لا تعد الى ذلك ثانية ، لا تدعوا زمامه يفلت من جديد » فقال لوفت فى تذمر « ان لدينا من المتاعب ما يغنينا عن جنون ضباط القيادة » ولكن توندر تابع حديثه « أتظن حقيقة ان ضباط البدل سيأتون يا كابتن » ؟

— أنا لم أذكر شيئا عن ضباط البدل .

— لقد قلت انهم قد يأتون .

— لقد قلت لا أدرى ، اســمع يا لفتنانت ، لقد هزمنا نصف العالم ، ولابد أن نوطد النظام فيه فترة من الزمن ، انك تعلم ذلك .

فسأل توندر « فماذا عن النصف الآخر ؟ » فقال لوفت « سيحاربون فى يأس بعض الحين » .

— اذن فلابد أن ننتشر فى كل مكان ؟

فقال لوفت « لبعض الحين » فقال پراكل فى عصبية « كم أتمنى أن تسكتوه ، كم أتمنى أن تغلقوا عليه الأبواب ، اجعلوه يكف عن هذا » فأخرج توندر منديله ونظف أنفه وضحك فى ارتباك ثم تكلم برهة كمن طاش صوابه « لقد حلمت حلما عجيبا ، أو خيل الى انه حلم أو لعله كان فكرة ، هو حلم أو فكرة » فقال پراكل « مره يصمت يا كابتن » فقال توندر « هل احتللنا فعلا هذا المكان » فقال لوفت «لاشك» .

وبدت نغمة مجنونة فى ضحــكة توندر وهو يقــول « احتللناها ، ثم نحن خائفون ، احتللناها ثم نحن محاصرون» وعلت ضحكته الخرقاء وهو يقول « كان حلما أو فكرة .. هناك فى الجليد حيث الظلال القاتمة .. والرؤوس فى أبواب المنازل ، والوجوه الكالحة وراء الستائر .. لقد كان حلما أو فكرة » .

فقال پراكل « مره يصمت » فقال توندر « حلمت ان زعيمنا قد جن » فضحك لوفت وتوندر معا وقال لوفت

« لقد تبين الأعداء مدى جنونه ، سأكتب هذه المقالة الى الوطن ، وستنشرها الصحف ، فقد عرف الأعداء الى أى مدى بلغ جنون الزعيم » وتابع توندر ضحكه وقال « غزو يتبع غزوا ، ونغوص فى العسل » وغص بضحكة فكح فى منديله ثم قال « الزعيم مجنون فعلا ، الذباب يغزو مصيدة الذباب ، الذباب يحتل مئات الأميال من أرض مصيدة الذباب » وأصبحت ضحكته أكثر جنونا فمال عليه پراكل وهزه هزة عنيفة بيده السليمة « كفى ، كفى ، لا يليق بك هذا » وتبين لوفت بالتدريج ان الضحك كان جنونيا فخطا قريبا من توندر وصفعه على وجهه وقال « كف عن هذا أيها الملازم » .

وتابعت ضحكة توندر انطلاقها فصفعه لوفت على وجهه ثانية وقال « كف أيها الملازم ، أما تسمعنى » وفجأة توقفت ضحكة توندر ، وعاد الهدوء الى الغرفة الا ذلك الحسيس منبعثا من الفوانيس ، فنظر توندر فى ذهول الى يده ، وتحسس وجهه المحتقن بيده ثم نظر الى يده ثانية ، ثم انهارت رأسه على المنضدة وهو يقول « أريد أن أعود الى الوطن » .

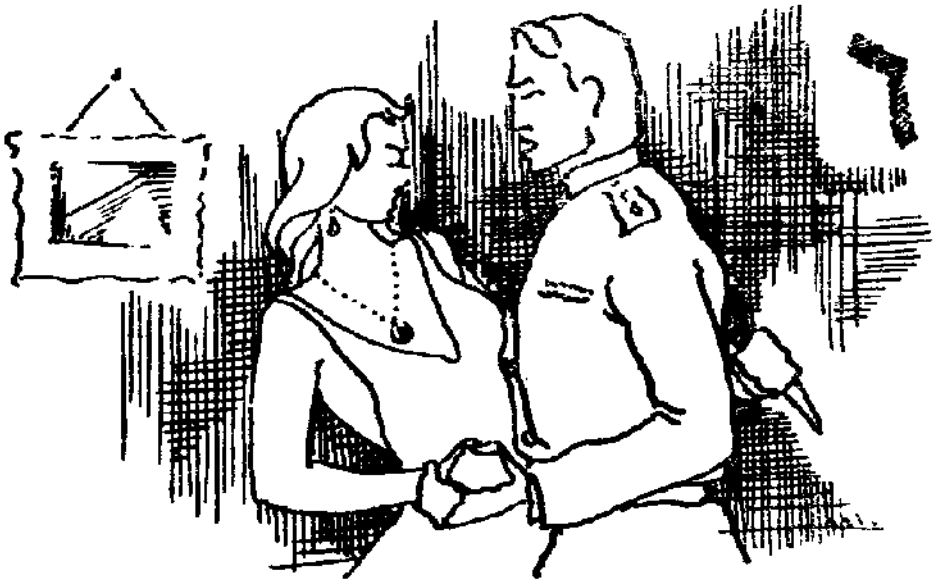

على مقربة من الميدان العام كان هناك شارع صغير تختلط الحوانيت فيه بالمنازل الصغيرة ذات الأسقف الهرمية وكانت الأقدام قد داست الثلج فسوته على أرض الشارع والدروب ، ولكنه كان ما يزال مكدسا فى أكوام عالية على الأسوار ومندوفا فوق قمم الأسقف وعالقا على خشب النوافذ فى هذه البيوت الصغيرة . وكان ثمة طرق ممهدة فى الأفنية .

كان الليل معتما باردا ، ولا ضوء ينفذ من النوافذ حتى لا تنجذب اليه قاذفات القنابل . كان الطريق خاليا من الرواد فالتجول محظور . كانت المنازل تبدو كنتوءات سوداء تجابه الجليد ، ومن لحظة الى أخرى كانت الدورية المكونة من ستة رجال تمر فى الطريق لتقوم بالتفتيش ، يحمل كل رجل فيها مصباحا كهربيا ، كانوا كأشباح ملثمة غارقة فى معاطف

سميكة وقد اتخذوا تحت خوذاتهم غطاء رأس من الصوف يغطى آذانهم وذقونهم وأفواههم .

وتساقطت ذرات من الجليد .. ذرات كحبات الأرز . وكان رجال الدورية يتحدثون فى أثناء سيرهم .. يتحدثون عن أشياء طالما حنوا اليها .. عن اللحم وعن الحساء الساخن ، وعن الزبد الدسم ، وعن الفتيات المليحات .. عن الابتسامة تشرق على شفاهن ، وتترقرق فى عيونهن .. كانوا يتحدثون عن هذه الأمور ، أو هم يتحدثون أحيانا عن كراهيتهم للمهمة التى يقومون بها ، وتلك الوحدة التى تحيط بهم .

وكان ثمة منزل صغير ذو سقف هرمى يقع بجانب دكان الحدادة ولا يختلف فى شكله عن المنازل الأخرى ، فالقبعة الثلجية تعلوه ، والضوء لا يخرج عن خشب نوافذه وبابه محكم الاغلاق . أما فى الداخل فقد كان ثمة مصباح يشتعل بغرفة الجلوس الصغيرة ، وكان الباب مفتوحا الى غرفة النوم كما كان باب المطبخ مفتوحا أيضا ، وكان موقد من الصلب يقف بجانب الحائط الخلفى ، تلتهب فيه نار خافتة . كانت غرفة دافئة تتوافر فيها الراحة وان بان عليها الفقر ، غطيت أرضها بسجادة بالية ، وعلقت على جدارها الخلفى صورتان رسمت على احداهما سمكة هامدة ملقاه فى طبق على نبات أخضر ، ورسم على الأخرى طائر من طيور القطا وقد استلقى ميتا على غصن شجرة . أما الحائط الأيمن فقد كانت عليه صورة المسيح وهو يسير فوق الأمواج الى صائدى الأسماك

اليائسين . وكان بالغرفة كرسيان من النوع المألوف وأريكة مغطاة بملاءة زاهية اللون ، وفى وسط الغرفة كانت تقوم منضدة مستديرة استقر عليها مصباح بترول زين دائره بنماذج من الزهور . وكان الضوء فى الغرفة ناعما دافئا . وكان بجانب الموقد باب داخلى يؤدى الى الردهة الواصلة الى الباب الخارجى .

وكانت مولى موردن تجلس وحيدة فوق مخدة ملقاة على كرسى هزاز ، وقد راحت تنسل خيوط الصوف من صديرى ، وتلفها على كرة حتى كونت كرة كبيرة من الصوف وكان النسيج الذى تغزله بابرتها ملقى على المنضدة بجانبها وبجواره مقص كبير وكانت نظارتها أيضا على المنضدة بجانبها فهى لا تحتاج اليها وهى تنسج . كانت تبدو جميلة ريانة أنيقة ، فشعرها الذهبى ملفوف على رأسها وقد أمسكه أن ينساب مشبك أزرق اللون ، ويداها تعمل بمهارة فى نسل الصوف ، ولم يمنعها العمل أن تنظر من حين لآخر الى الردهة من خلال الباب . وكانت الريح تصفر بنعومة فى الموقد ، فقد كانت ليلة هادئة وان لفها الجليد .

وفجأة توقفت عن العمل ، وأمسكت يدها عن الحركة ونظرت تجاه الباب وتسمعت فوصل الى أذنها وقع أقدام الدورية وهى تمر بالشارع ، كما التقطت أذنها همهمة حديثهم . ثم ابتعدت الأصوات ، وراحت مولى تنسل خيوطا أخرى وتلفها على الكرة ولكنها توقفت ثانية ، فقد سمعت

حفيفا بجانب الباب تبعته ثلاث طرقات قصيرة ووضعت مولى ما بيدها وذهبت الى الباب وقالت « من ؟ » .

ورفعت المزلاج عن الباب وفتحته فبدأ فيه شبح مغطى بعباءة ثقيلة ، انها آنى الطاهية ، بعينيها الحمراوين وقد تلفعت بشال ، وانسلت الى الداخل فى سرعة كما لو كانت قد تعلمت بالمرانة كيف تنسل فى سرعة خلال الأبواب وتقفلها بعد دخولها ووقفت فى الغرفة حمراء الأنف ، مزكومة ، تجول بعينها فى جنبات الغرفة . فقالت مولى « مساء الخير يا آنى ، لم أتوقع مجيئك الليلة ، ارفعى عنك هذه الأشياء واجلسى الى الموقد ، فالجو بارد فى الخارج » فقالت آنى « لقد أتى الجنود بالشتاء قبل موعده ، طالما قال أبى ان الحرب تجلب الأجواء الرديئة ، أو ان الأجواء الرديئة تجلب الحرب ، لم أعد أذكر ما كان يقول » .

— اخلعى هذه الأشياء وتعالى الى الموقد .

فقالت آنى « لا أستطيع فانهم قادمون » فقالت مولى « من القادمون ؟ » فقالت آنى « سعادة العمدة ، والدكتور ، وولدا أندرس » فسألت مولى « أقادمون الى هنا ؟ ولم ؟ » فمدت آنى يدها بلفافة صغيرة وقالت « خذيها ، لقد سرقتها من طابق الكولونيل ، انها لحم » وفضت مولى اللفافة عن شطيرة اللحم الصغيرة ثم وضعتها فى فمها وتكلمت وهى تمضغ « هل أصبت أنت شيئا من هذا ؟ » فقالت آنى « لقد طبختها ! أليس كذلك ، اننى دائما أصيب شيئا » .

— ومتى يقدمون ؟

فقالت آنى « ولدا أندرس مبحران الى انجلترا ، انهما مضطران الى ذلك ، وهما مختبئان الآن » فسألت مولى « مختبئان ؟ ولماذا ؟ » .

— انه أخوهما جاك الذى رمى بالرصاص اليوم لأنه أفسد تلك العربة الصغيرة ، والجنود يبحثون عن بقية عائلته وأنت تعرفين ما يفعلون .

فقالت مولى « نعم ، انى أعرف ما يفعلون ، اجلسى يا آنى » فقالت آنى « لا وقت لدى ، على أن أعود لأخبر سعادة العمدة ان المكان مناسب هنا » فقالت مولى « هل رآك أحد وأنت آتية ؟ » فابتسمت آنى فى زهو وقالت « لا ، فانى ماهرة جدا فى التسلل » .

— كيف سيتمكن العمدة من الخروج ؟

فضحكت آنى وقالت « ان چوزيف سيأخذ مكانه فى السرير اذا فكروا أن يتأكدوا من وجوده ، سيرتدى چوزيف ملابس سيده المسائية ، ويستلقى بجوار زوجته » ثم ضحكت ثانية وقالت « يحسن بچوزيف أن يستلقى فى هدوء كامل » فقالت مولى « انها ليلة مروعة للابحار » .

— ولكنها خير من استقبال الرصاص .

— نعم أنت محقة ، ولكن لماذا يأتى العمدة الى هنا ؟

— لا أدرى ، انه يريد محادثة ولدى آندرس ، لابد لى أن أذهب الآن فما جئت الا لأخبرك بقدومهم .

فقالت مولى « ومتى يقدمون » فقالت آنى « بعد نصف ساعة أو أكثر قليلا ، وسوف أجيء أنا أولا ، فان أحـدا لا يضايق الطباخات العجائز » وبدأت تتجه الى الباب ، ولكنها التفتت من منتصف الطريق وأرادت أن تستدرك كلماتها الأخيرة وكأنها تتهم مولى بقولها . فقالت « لست عجوزا الى هذا الحد » ثم انفلتت من الباب وأقفلته خلفها .

وعادت مولى الى نسيجها ولكن ما هى الا لحظة حتى قامت الى الموقد ترفع غطاءه فأضاء وجهها بوهج النـار ، وقلبت هى النار وزودتها ببعض قطع من الفحم ثم أقفلت الموقد ثانية . وقبل أن تصل الى كرسيها ، انبعث صوت طرق على الباب الخارجى ، فعبرت الغـرفة وهى تقول لنفسها « ترى ماذا نسيت آنى ؟ » وذهبت مولى الى الردهة وقالت « ماذا ؟ » وجاءها الجواب فى صوت رجل ففتحت الباب وقال صوت الرجل « أنا لا أقصد ايذاءك ، أنا لا أقصد الى أى أذى » وتراجعت مولى الى الغرفة وتابعها الملازم توندر اليها ، فقالت مولى من أنت ؟ وماذا تريد ؟ أنت لا تستطيع الدخول هنا ، ماذا تريد ؟ » .

وكان الملازم توندر مرتديا معطفه الرمادى الفاخر ، وقد خلع خوذته عندما دخل الغرفة ثم أخذ يتكلم مدافعا عن نفسه « انى لا أريد أى أذى بك ، فدعينى أدخل أرجوك » فقالت مولى « فماذا تريد ؟ » وأقفلت الباب خلفه فقال « اننى

يا سيدتى لا أريد الا الحديث اليك ، هذا كل ما فى الأمر ، أريد أن أسمعك تتحدثين ، هذا هو كل ما أريد » فسألته مولى « أو تفرض على نفسك ؟ » .

— لا يا سيدتى ، وانما فقط اسمحى لى أن أظل معك هنيهة ثم انصرف .

— وماذا تريد من ذلك ؟

فحاول توندر أن يوضح لها قائلا .. « أتستطيعين أن تدركى هذا ؟ أتستطيعين تصديقه ؟ ألا يمكنك أن تنسى هذه الحرب لمجرد هنيهة ؟ ألا يمكننا أن نتحادث معا كآدميين ، هنيهة ، هنيهة كآدميين تجمعنا الحياة ؟ » .

ونظرت مولى اليه طويلا ثم أطلت على شفتيها ابتسامة .

— أنت لا تعرف من أنا ؟ أتراك تعرف ؟

فقال توندر « لقد رأيتك فى البلدة انك لرائعة ، كنت أعلم اننى سأكلمك » .

وظلت الابتسامة على شفتى مولى وهى تقول فى نعومة « أنت لا تعرف من أنا ؟ » وجلست فى كرسيها بينما ظل توندر واقفا كالطفل وقد بدا عليه ارتباك شديد ، وتابعت مولى حديثها الهادىء « ألأنك تحس الوحدة ؟ أليس الأمر كذلك » ومر توندر بلسانه على شفتيه وتكلم فى لهفة قائلا « انه لكذلك ، لقد أدركت ، لقد كنت أعلم انك ستدركين ، لقد

كنت أعلم ذلك » وارتعشت كلماته وهو يقول « لقد بلغت بى الوحدة حد الاعياء ، اننى وحيد فى هذه العزلة وفى هذه الكراهية التى تحيط بى » ثم قال فى رجاء « ألا نستطيع أن نتحدث فترة وجيزة لا أكثر » .

ورفعت مولى نسيجها ونظرت فى سرعة الى الباب الخارجى « انك لا تستطيع البقاء أكثر من خمس عشرة دقيقة ، اجلس قليلا يا لفتنانت » .

ونظرت مولى ثانية الى الباب الخارجى ، وسمع صريف فى البيت ، وكان توندر قد أصبح متوتر الأعصاب فهو يقول « هل ثمة أحد هنا ؟ » .

— لا ، انه الجليد يثقل على السقف ، ولم يعد لى رجل ليزيله .

فقال توندر فى رفق « ومن فعلها ، أتراه نحن ؟ » فأومأت مولى برأسها وقد طوحت بنظرها بعيدا وقالت « نعم » فقعد توندر وهو يقول « آسف » ثم سكت لحظة وقال « أرجو أن أكون ذا نفع لك ، سأقوم بازالة الجليد عن السقف » فقالت مولى « لا .. لا .. » .

— ولم لا ؟

— لأن قومى سيعتقدون اننى على وفاق معكم ، فينبذوننى ، وانى لا أحب أن أكون منبوذة .

فقال توندر « نعم ، هكذا سيكون الأمـر ، كلكم تكرهوننا ، ولكننى سأرعى أمرك اذا سمحت لى بذلك » وحينئذ أدركت مولى انها تسيطر على الموقف ، فضاقت عيناها قليلا فى قسوة وقالت « ولماذا تسأل ؟ انك المنتصر ، ان قومك لا يسألون وانما هم يأخذون ما يريدون » فقال توندر « ليس هذا ما أصبو اليه ، أنا لا أريد الأمور بيننا أن تسير على هذا النحو » .

وضحكت مولى فى شىء من القسوة لا تزايلها وقالت « أنت تريدنى أن أهواك أليس كذلك يا لفتنانت ؟ » .

فقال ببساطة « نعم » ثم رفع اليها رأسه وقال « كم أنت جميلة ، دافئة ، وكم هو رائع شعرك هذا ، يا لله !! لقد مضى بى زمن بعيد لم أر فيه هذا الحنان يشرق على وجه امرأة » .

فسألته مولى « أترى شيئا من الحنان على وجهى ؟ » فنظر اليها مليا وقال « تمنيت لو أرى » فأسبلت جفنها أخيرا وقالت « انك تغازلنى ، أليس كذلك يا لفتنانت ؟ » فقال مرتبكا « انى أريدك أن تحبينى ، نعم بالتأكيد ، أريدك أن تحبينى ، واننى بالتأكيد أريد أن أرى حبك لى فى عينيك ، لقد رأينـك فى الطريق ، ورَقَبْتـك وأنت تمرين بى ، فأصدرت الأوامر ألا يزعجك أحد ، هل أزعجك أحد ؟ » .

فقالت مولى بهدوء « شكرا ، لا ، ان أحدا لم يزعجنى »

فتدافعت كلماته « ولقد نظمت لك شعرا ، أما تحبين أن تسمعي شعرى » فقالت فى هزء « أهى قصيدة طويلة ، فان عليك أن تمضى سريعا » .

فقال « لا ، انها قصيدة غاية فى القصر ، انها قطعة صغيرة من الشعر » ووضع يده فى ثوبه وأخرج ورقة مطوية وأسلمها اليها ، فانحنت الى جانب المصباح ووضعت نظارتها وراحت تقرأ فى هدوء :

ان عينيك فى عميق سماء السحر بين الهدّاب والانسان (١)
لهما صوت كالأسير المعنّى ثم لم ترضيا بأن تطلقانى
فهما البحر مائجا بالعميق الأزرق الحلو من سرىّ المعانى
وهما البحر مائجا طاغى الموج على المستطار من وجدانى

ثم طوت الورقة ووضعتها فى ثنايا فستانها ثم قالت « أكتبت هذا الشعر يا لفتنانت ؟ » .

— نعم .

فقالت فى شىء من التعنيف « وكتبته لى ؟ » .

فقال توندر فى غير ارتياح « نعم » .

فنظرت اليه فى حدة وقالت « انك لم تكتبه يا لفتنانت ، أليس كذلك » فضحك كطفل انكشف كذبه وقال « لا » فسألته مولى « أتعرف من كتب هذا الشعر ؟ » فقال توندر

---

(١) نظم هذه الأبيات شعرا الأستاذ العوضى الوكيل .

« نعم ، انه هاينى الذى كتبها وانها قصيدة(بعينيك الزرقاوين) لقد طالما أعجبت بها » ثم ضحك فى ارتباك فشاركته مولى ضحكه ، وفجأة غرقا فى الضحك معا ، وفجأة توقف هو عن الضحك وغامت عيناه فى نظرة فارغة وقال « ما ضحكت حياتى كما أضحك الآن ، لقد قالوا لنا ان الشعوب ستحبنا وتعجب بنا فما رأينا فيهم غير الكراهية والحقد » ثم غير موضوع حديثه فى لهفة من يغالب الزمن وقال « أنت فى غاية الجمال ، أنت جميلة كالضحك » .

فقالت مولى « لقد بدأت فى مغازلتى يا لفتنانت، ويجب أن تمضى الآن ، أمامك دقيقة واحدة » .

فقال تو ندر « لعلى أريد أن أغازلك ، فان الرجل لا يغنى عن الحب ، الرجل يموت بغير حب ، فتذوى نفسه ، ويحس كأن صدره حطام جاف ، لكم أحس بالوحدة » .

وقامت مولى عن كرسيها ، وألقت نظرة مضطربة الى الباب ، ثم مشت الى الموقد ثم عادت الى مكانها والصرامة تنمو على وجهها ، والتأنيب يبين فى عينها ثم قالت « أتريد أن تنالنى يا لفتنانت » .

— أنا لم أقل هذا ، فمالك تتكلمين على هذا النحو ؟

فقالت مولى بقسوة « لعلى أريد أن أحتقرك ، فقد كنت متزوجة ومات عنى زوجى وهكذا ترى اننى لست عذراء » وكانت المرارة واضحة فى صوتها .

فقال توندر « ما أردت الا أن أروق لك » .

فقالت مولى « أعرف ، ولكنك رجل متمدين ، وتعلم ان المغازلة لا تكتمل ولا تتم متعتها الا اذا قامت على رغبة متبادلة » .

فقال توندر « كفى عن هذا الحديث ، أرجوك ألا تتكلمى بهذه الطريقة » .

وحدقت مولى بسرعة الى الباب وقالت « اننا شعب مهزوم يا لفتنانت ، وقد منعتم عنا الغذاء ، وانى جائعة ، اننى سأحبك ان أنت أطعمتنى » .

فقال توندر « ماذا تقولين ؟ » .

— أأثير اشمئزازك يا لفتنانت ، لعلى أحاول أن أثيره ، ان ثمنى قطعتان من « السجق » .

فقال توندر « لا يليق بك أن تلقى هذا الحديث » .

— فماذا عن فتيات وطنك بعد الحرب الماضية يا لفتنانت ، لقد كان الرجل يستطيع أن يتخير أية واحدة منهن لقاء بيضة أو كسرة من الخبز ، فمالك تريدنى بلا ثمن يا لفتنانت ، أترانى مغالية فى الثمن ؟ » .

فقال « انك تعبثين بى ، انك تكرهيننى ، أليس كذلك كنت أظن أنك لن تكرهينى » فقالت « لا ، أنا لا أكرهك ، انى جائعة وانى .. انى أكرهك » فقال توندر « سأقدم لك

أى شيء تحتاجين اليه ، ولكن .. » فقاطعته قائلة « تريد أن تخفى رغبتك وراء اسم آخر ، أنت لا تنشد امرأة داعرة ، أهذا ما تقصد اليه » فقال توندر « أنا لا أعرف ما أقصد اليه ، لقد جعلت من هدفى شيئا يغتلى بالكراهية » فضحكت مولى وقالت « ليس من العدل أن أكون جائعة ، قطعتان من السجق ، قطعتان من السجق السمين يمكن أن تكونا أثمن شيء فى الوجود » فقال « لا ترددى هذه الأشياء ، أرجوك لا ترددیها » .

— ولم لا ، انها حقائق .

— انها ليست حقائق ، ان مثل هذا لا يمكن أن يكون حقـا .

فنظرت اليه لحظة ثم قعـدت وقد خفضت من بصرها « لا ، انها ليست حقائق ، أنا لا أكرهك ، اننى أحس الوحدة أنا أيضا ، وما زال الجليد يثقل على السقف » .

ونهض توندر وسار اليها ، وأخذ احدى يديها فى كلتا يديه وقال فى رقة « أرجوك لا تكرهينى ، لست الا ضابطا صغيرا ، ولا يد لى فى المجيء الى هنا ، وأنت أيضا لا يد لك فى أن تكونى عدوتنا ، اننى مجرد رجل ، وما أنا برجل غزو » وأحاطت أصابع مولى بيده هنيهة ثم قالت فى حنان « أعلم ، نعم ، انى أعلم » فقال توندر « ان لنا بعض الحق أن نحيا وسط هذا الموت الذي يغشانا » ووضعت يدها على خده لحظة

وقالت « نعم » فقال « سأرعى أمرك ، ان لنا بعض الحق فى الحياة بين هذه المجازر الحاصدة » .

واستقرت يده على كتفها ، ولكنها ما لبثت أن تقلصت عضلاتها فجأة فاتسعت عيناها وحملقت فى الفضاء وكأنها ترى شبحا ، فرفع يده عنها وسألها « ماذا بك ؟ ماذا حدث ؟ » وظلت عيناها محملقة ، فأعاد سؤاله « ماذا حدث ؟ » .

فتكلمت مولى فى صوت مضطرب « لقد ألبسته كطفل صغير بسبيله الى اليوم الأول فى مدرسته ، وكان خائفا ، زررت قميصه وحاولت أن أواسيه ، ولكن لم يكن الى مواساته من سبيل ، لقد كان خائفا » .

فقال توندر « ماذا تقولين ؟ » وبدت مولى وكأنها ترى ما كانت تقصه « أنا لا أدرى لماذا تركوه يعود الى المنزل ، كان مضطربا ، لم يكن يدرى ما يدور حوله ، حتى انه لم يقبلنى وهو ينصرف ، كان خائفا .. وشجاعا ، كطفل صغير بسبيله الى اليوم الأول فى مدرسته » ووقف توندر قائلا « انه زوجك » فقالت مولى « نعم انه زوجى ، ذهبتُ الى العمدة ، ولكنه كان عاجزا ، وسار الى حتفه ، لم يكن قويا ولا ثابتا ، وتناولته أنت ، ورميته بالرصاص لقد كانت الدهشة عندى تفوق الفزع ، لم أكن أصدق ما كان يجرى » فقال توندر « زوجك » ؟

— نعم ، والآن فى هذا المنزل الفارغ ، أدرك الحقيقة ،

وفى الوحدة قبل أن ينشق الصبح فى السرير البارد ، أحسست الحقيقة .

ووقف توندر أمامها وقد غام وجهه بالشقاء وقال « طاب مساؤك ، ويرعاك الله ، هل لى أن أعود ؟ » .

ونظرت مولى الى الحائط والذكريات وقالت « لا أدرى »

— سأعود ؟

— لا أدرى .

فنظر اليها ثم خرج بهدوء من الباب ، وظلت مولى تحدق فى الحائط « يرعانى الله ! » وحدقت فى الحائط لحظة ، ثم فتح الباب فى خفة وتسللت آنى الى الداخل ولم ترها مولى فقالت آنى فى احتجاج « لقد كان الباب مفتوحا » .

فنظرت مولى اليها بعينين ما تزالان محدقتين « نعم ، آه نعم يا آنى » .

— كان الباب مفتوحا ، وقد خرج منه رجل ، ورأيته انه يشبه جنودهم .

فقالت مولى « نعم يا آنى » .

— أكان هنا جندى ؟

— نعم لقد كان جنديا .

ثم سألت آنى فى تشكك « ماذا كان يفعل هنا » ؟

— لقد جاء ليطارحنى الغرام .

فقالت آنى « ماذا أنت فاعلة أيتها السيدة ، لعلك لم تنضمى لصفوفهم ، انك لست فى جانبهم مثل ذلك المدعو كوريل » .

— لا ، أنا لست فى جانبهم يا آنى .

فقالت آنى « اذا عادوا والعمدة هنا ، سيكون هذا خطأك ، اذا وقع أى حادث ، فأنت وحدك المخطئة » .

— انه لن يعود ، لن أسمح له أن يعود .

ولكن الريبة لم تزايل آنى فهى تقول « أأسألهم أن يأتوا الآن ، هل أنت واثقة من سلامتهم ؟ » .

— نعم انى واثقة ، أين هم ؟

فقالت آنى « انهم فى الخارج بجانب السور » .

— سليهم أن يدخلوا .

وحين خرجت آنى ، نهضت مولى وراحت تمشط شعرها وتهز رأسها محاولة أن تعود ثانية الى حيويتها . ثم سمع صوت خافت فى الردهة . ودخل شابان طويلان أشقران ، يرتديان معطفين مما يرتديه رجال البحر فوق صديرين من الجلد واصلين الى رقبتيهما ، وقد اتخذا على رأسيهما قلنسوتين منسوجتين نسج الجوارب . كان الجليد قد لفح

وجهيهما وكانا يفيضان بالقوة ، ويكادان يبدوان كتوأمين ، انهما ويل آندرس وتوم آندرس الصيادان .

— مساء الخير يا مولى ، هل جاءتك الأنباء ؟

— لقد أخبرتنى آنى ، ولكنها ليلة عاصفة لا تصلح للاقلاع .

فقال توم « انها خير من ليلة صافية ، فانه يسهل على الطيارات أن تراك فى ليلة صافية ، ماذا يريد العمدة يا مولى ؟ » .

— لا أدرى ، لقد سمعت بما حدث لأخيكما ، وانى لحزينة لما سمعت .

وصمت الاخوان وألقيا نظرة مرتبكة ، وقال توم « لا يعرف أحد وقع هذه الأحداث كما تعرفينه أنت » .

— نعم ، نعم ، انى أعرفه .

ودلفت آنى من الباب ثانية وقالت فى همس أجش « انهم هنا » ودخل العمدة أوردن والدكتور وينتر ، وخلعا معطفيهما وقبعتيهما وألقيا بها جميعا على الأريكة ، وقصد أوردن الى مولى فقبلها على جبينها وقال « مساء الخير يا عزيزتى » ثم استدار الى آنى « قفى فى الردهة يا آنى ، وانذرينا بطرقة حين تجىء الدورية ، وبمثلها حين تمضى ، وبطرقتين ان رأيت خطرا يدهم ، وتستطيعين أن تتركى الباب الخارجى منفرجا

حتى تتبينى القادمين » فقالت آنى « أمرك يا سيدى » وذهبت الى الممر وأقفلت باب الغرفة وراءها .

وكان الدكتور وينتر بجانب الموقد يدفىء يديه فقال « سمعنا انكما مرتحلان الليلة يا ولدى » فقال توم « لابد لنا أن نرتحل » فأومأ أوردن قائلا « نعم ، أعرف ، فقد سمعنا انكما مرتحلان وانكما ستصحبان كوريل معكما » .

فضحك توم بمرارة وقال « نظن ان هذا هو الجزاء العدل . اننا سنأخذ قاربه ، ولكننا لا نطيق أن نتركه يسعى فانه لا يطيب لنا أن نراه فى الشوارع » .

فقال أوردن فى حزن « تمنيت لو كان قد ارتحل قبل اليوم ، فان الخطر يتهددكما ان أنتما أخذتماه » .

— انه لا يطيب لنا أن نراه فى الشوارع .

وردد ويل قول أخيه « ان الناس لا يطيب لهم أن يروه هنا » فسأل وينتر « أيتاح لكما أن تأخذاه ، أما ترونه حذرا يحتاط لكل شىء ؟ ! » .

— آه ، نعم ، انه حذر الى حد ما ، فانه فى الساعة الثانية عشرة ، بينما يكون سائرا فى طريقه الى منزله كعادته ، سنكون نحن خلف الجدار ، واعتقد اننا سنستطيع أن نعبر به حديقته السفلى الى الماء ، حيث يرسو قاربه ، لقد كنا فيه اليوم نعده للرحلة .

فأعاد أوردن قوله « تمنيت لو عدلتما عن هذا ، فالخطر

حولكما سيتضاعف ، فانه اذا ند عنه صـــوت ستدهمكما الدورية » .

فقال توم « ان صوتا لن يند عنه ، فانه يحسن به أن يختفى فى البحر ، فان بعضا من رجال البلدة قد يقتلونه فيكثر فينا التقتيل ، لا ، انه يحسن به أن يختفى فى النهر » .

وعادت مولى الى نسيجها وهى تقـــول « هل ستلقيانه من القارب ؟ » وصعدت الدماء الى وجه ويل وهو يقول « سيمضى الى البحر يا سيدتى » ثم استدار الى العمدة قائلا « لقد أردت أن ترانا يا سيدى » .

— آه ، نعم ، لقد أردت أن أحدثكما ، لقد كنت والدكتور وينتر نحاول أن نفكر ، هناك أمور كثيرة يجب بحثها حول العدل ، والظلم ، والغزو ، فقد غزى شعبنا ولكننى لا أرى انه هزم .

وسمعت طرقة حادة على الباب ، فخيم الصمت على الغرفة ، وتوقفت ابر مولى عن العمل وظلت يد العمدة الممدودة معلقة فى الهواء ، وكان توم يهرش أذنه فتوقف عن الهرش وأبقى يده فى مكانها . وظل كل فرد بالغرفة ثابتا لا يأتى بحركة ، واتجهت كل عين فيهم الى الباب . وجاءهم صوت بدأ ضعيفا ثم أخذ يقوى ، انه الدورية فى مرورها ووقع أقدام الجنود على الجليد تختلط بحديثهم وهم سائرون . وعبروا الباب وشيئا فشيئا اختفت أصواتهم

ثم سمعت طرقة أخرى . فهدأ التوتر فى الغرفة وقال أوردن « لابد ان آنى مسها البرد فى الخارج » وأخذ معطفه عن الأريكة وفتح الباب الداخلى ومد يده فى فرجته بالمعطف . وقال « ضعى هذا على كتفيك يا آنى » ثم أقفل الباب وقال « لا أدرى ماذا كنت أصنع بغيرها ، انها تتسلل الى كل مكان فتسمع وترى كل شىء » فقال توم « يجب أن نسارع بالذهاب يا سيدى » وقال وينتر « أرجو أن تسقطا كوريل من خطتكما » .

— لا نستطيع فانه لا يطيب لنا أن نراه فى الشوارع .

ثم نظر فى تساؤل الى العمدة أوردن ، وبدأ أوردن يتحدث فى بطء « أريد أن أتحدث فى بساطة ، ما هـــذه الا بلدة صغيرة ، يتمثل العدل والظلم بها فى صغير الأمور ، لقد قتل أخوك كما قتل الكس موردن ، وانتقامنا ينصب على الخائن ، الشعب ثائر ولا وسيلة بيده ليرد العدوان ، ولكن هذه كلها أمور صغيرة ، انه شعب يصارع شعبا ، وليست فكرة تصارع فكرة » .

فقال وينتر « انه لعجيب أن يفكر طبيب فى التخريب ، ولكننى أظن ان كل شعب يدهمه الاحتـــلال يسعى الى المقاومة ، ونحن بلا سلاح ، فما تكفى أرواحنا وأجسامنا ، فان روح الرجل الأعزل مخذولة » فسأل ويل أندرس « فيم كل هذا الحديث يا سيدى ماذا تريد منا ؟ » فقال

أوردن « نريد أن نقاتلهم فلا نستطيع قتالا ، انهم يسلطون الجوع على الشعب ، والجوع طريق الى الضعف ، وأنتما يا ولدى فى طريقكما الى انجلترا وقد لا تجدان من يستمع اليكما ، ولكن أبلغاهم عنا ، نحن رجال البلدة الصغيرة ، أننا فى حاجة الى السلاح » فسأل توم « أتريد مدافع ؟ » .

ومرة أخرى سمعت طرقة سريعة على الباب ، فتجمد القوم فى أماكنهم ، وجاء من الخارج صوت الدورية ، ولكنها كانت تجرى فى خطوة سريعة ، واتجه ويل بسرعة الى الباب وأصبحت الخطوة السريعة أمام البيت ، وسمعت أوامر مبهمة ثم سارت الدورية فى طريقها ، وسمعت طرقة ثانية على البـاب .

وقالت مولى « لابد انهم يجدّون فى أثر بعض الناس ، ترى من يكون ؟ » فقال توم فى قلق « يجب أن نسارع بالذهاب ، أتريد مدافع يا سيدى ؟ ! نسألهم أن يرسلوا مدافع ؟ » .

— لا ، وانما صف لهم الحال هنـا ، قل لهم اننـا مراقبون ، فأى حركة نأتيها تقـودنا الى التنكيل ، فلو ان لدينـا بعض الأسلحة السرية البسيطة التى يمكننـا أن نستعملها خفية ، مفرقعات ، أو ديناميت لننسف القضبان أو قنابل يدوية أو سموم ان أمكن .

ثم اندفع فى غضب قائلا « انها ليست حربا شريفة ،

انها حرب خيانة واغتيال ، فلنستعن بالوسائل التى استعانوا بها علينا ، سـل قاذفات القنابل البريطانية أن تلقى قنابلها الثقيلة على المناطق الصناعية ، ولكن سلهم أيضا أن يلقوا الينا بعضا من القنابل الصغيرة ، لنخفيها ثم نستعملها ، وندسها تحت القضبان ، والمخازن وحينئذ لن يعلم المحتل أينا يحمل سلاحا . ونصبح مسلحين .. مسلحين فى الخفاء ، وحينئذ لن يعلم المحتل اننا نحمل سلاحا ، سل قاذفى القنابل أن يحملوا الينا أسلحة خفيفة لنعرف كيف نستعملها » .

وشارك وينتر فى الحديث قائلا « لن يعرفوا أبدا أين سنوجه ضربتنا ، ولن يعرف الجنود أو رجال الدورية من منا يحمل سلاحا » .

ومر توم بيده على جبهته قائلا « سنخبرهم بذلك ، ان أفلتنا يا سيدى ولكن .. سمعتهم يقولون ان بعض القائمين بالأمر فى انجلترا لا يجرأون أن يزودوا عامة الناس بالسلاح».

فحدق فيه أوردن قائلا « آه ، لم يخطر لى ذلك ببال ، حسنا يمكننا أن نحاول ، ان كان أمثال هؤلاء ما يزالون يحكمون انجلترا وأمريكا ، فالعالم قد ضاع لا محالة ، أنبئهم بما نقول اذا منحوك أذنا صاغية ، لابد لنا من عون ، فان حصلنا عليه .. » وتقلص وجهه وقال « ان حصلنا عليه فسنعين أنفسنا » .

فقـال وينتر « لو انهم لم يعطونا الا الديناميت ،

لأخفيناه فى الأرض ، وجعلناه عدتنا عند الحاجة ، وهكذا لن يستقر للمحتل قرار ، سننسف مؤنته » .

وسرت فى الغرفة روح الحماسة فقالت مولى فى وحشية « نعم ، سنثير قرارهم ونقض مضجعهم وسنحطم أعصابهم ونزعزع ثقتهم » .

وسأل ويل فى هدوء « أهذا كل ما تريده يا سيدى ؟ »

فأومأ أوردن « نعم ، هذا خلاصة ما نريد » .

— وماذا اذا لم يصغوا ؟

— ما عليكما الا السعى، كما ستسعيان فى البحر الليلة .

— هل هناك شىء آخر يا سيدى ؟

وفتح البـاب ودخلت آنى بهـدوء ، وقال أوردن « لا شىء ، ان كنتما ستمضيان الآن فلنرسل آنى لترى ان كان الطريق خاليا » ثم رفع بصره فوجد ان آنى قد دخلت فقالت آنى « ان جنديا يعبر الممر الخارجى ، انه يبدو كذلك الجندى الذى كان هنا من قبل ، فقد كان هنا جندى مع مولى قبل مجيئنا » ونظر الآخرون الى مولى وقالت آنى « لقد أغلقت الباب بالمزلاج » فتساءلت مولى « ماذا يريد ؟ لماذا عاد ؟ » وسمعت طرقة رقيقة على الباب الخارجى ، وخطا أوردن الى مولى « ما هذا يا مولى ؟ أتواجهين مأزقا » فقالت « لا .. لا » اذهبوا أنتم من الباب

الخلفى ، يمكنكم أن تخرجوا من الخلف ، اسرعوا ، اسرعوا بالخروج » .

وتتابعت الطرقات على الباب الخارجى ، وجاء صوت رجل مناديا فى رقة وفتحت مولى باب المطبخ وقالت « اسرعوا .. اسرعوا » وواجهها العمدة وقال « أتواجهين مأزقا يا مولى ؟ انك لم ترتكبى شيئا ؟ » فقالت آنى فى برود « يبدو كأنه نفس الجندى ، لقد كان هنا جندى من قبل » فقالت مولى للعمدة « نعم ، لقد كان هنا جندى من قبل » فقال العمدة « ماذا أراد بك » ؟

— أراد أن يطارحنى الغرام .

فقال أوردن « ولكنه لم يفعل ؟ » فقالت « لا ، لم يفعل اذهبوا الآن ، وسأواجه أنا الأمر » فقال أوردن « ان كنت فى مأزق يا مولى فدعينا نعاونك » فقالت « ان المأزق الذى أواجهه لا يستطيع أحد أن يعاوننى فيه . اذهبوا الآن » ثم دفعتهم خارج الباب . وتخلفت آنى ونظرت الى مولى وقالت « ماذا يريد هذا الجندى أيتها السيدة » ؟

— لا أعرف ما يريد .

— هل ستطلعيه على شىء مما دار هنا ؟

« لا » ثم أعادت مولى قولها فى دهشة « لا » ثم قالت فى حدة « لا يا آنى ، لن أطلعه على شىء » فقالت لها آنى

غاضبة « يحسن بك ألا تطليعه على شيء أيتها السيدة » ثم خرجت وأقفلت الباب وراءها . وتتابع الطرق على الباب الخارجي وأصبح صوت الرجل مسموعا من وراء الباب .

وذهبت مولى الى المصباح الذى يتوسط الحجرة وهى تنوء بحملها الثقيل ، فخفضت بصرها الى المصباح ، ثم نظرت الى المنضدة فرأت مقصها الكبير ملقى بجانب نسيجها فأمسكت بأسلحته ، وراحت الأسلحة تنزلق من أصابعها حتى أصبح مقبض المقص فى يدها فأمسكت به كما تمسك بسكين ، وبان الفزع فى عينها ، وعادت تنظر الى المصباح فغمر الضوء وجهها ، وببطء رفعت المقص ودسته داخل ثوبها .

وتتابع الطرق على الباب وسمعت الصوت يناديها ، ومالت هنيهة على المصباح ثم أطفأت النور فجأة ، وأظلمت الغرفة الا بصيصا من نور أحمر ينعكس من موقد الفحم . وفتحت الباب ، وكان صوتها منغوما مجهدا وهى تقول « انى آتية يا لفتنانت ، انى آتية » .

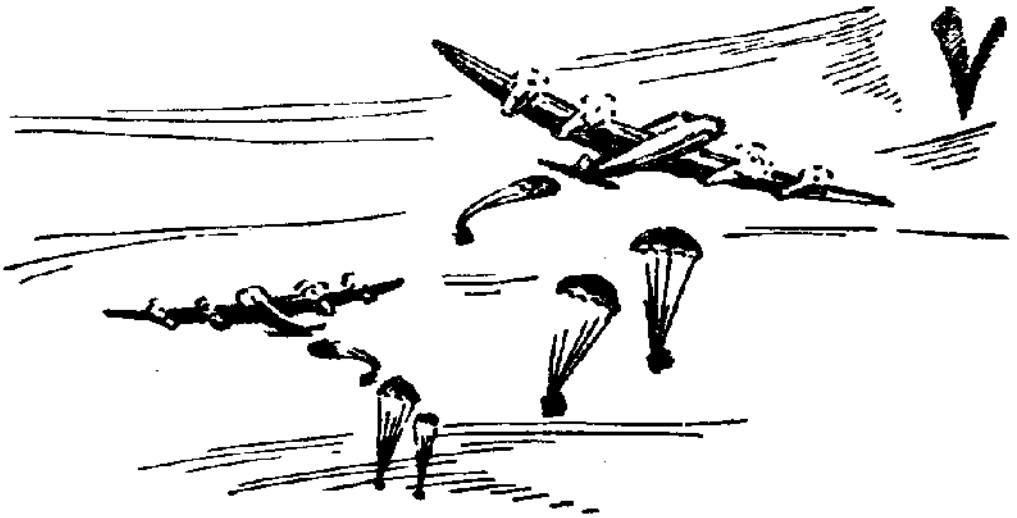

٧

في ليلة ظلماء صاخبة ، ألقى قمر أبيض شاحب ضـــوءا خافتا ، وكانت الريح الجافة ترسل أنغامها فوق الجليد ، ريح رخية تمر رتيبة مستوية من القطب الشمالى الى البارد . وكان الثلج على الأرض سميكا جافا كأنه الرمال ، وكانت البيوت غارقة فى فجوات من جليد ، وكانت النوافذ معتمة مغلقة تصد البرد ، فما ترى الا قليلا من الدخان تصعده النيران المشتعلة داخل البيوت .

وفى البــلدة كانت الممرات متجمدة ، وقد تكدس بها الجليد ، وكانت الشوارع صامتة أيضا ، الا حين تمر الدورية اليائسة ، كانت المنازل تلقى الليل بظلامها ، وكان الحراس يرقبون السماء عند مدخل المنجم ، ويصوبون آلاتهم الى هذه السماء ، ويوجهون أجهزة استماعهم الى نفس هـــذه السماء ، فقد كانت ليلة صافية لالقاء القنابل . وفى ليلة كهذه تتساقط القنابل الصلبة المجنـحة فى صفير ثم ما تلبث أن

تنفجر الى شظايا . فان الأرض تكون مكشوفة للسماء فى هذه الأمسيات مهما يكن ضوء القمر خافتا .

وفى أحد أطراف البلدة ، بين البيوت الصغيرة ، كان ثمة كلب يشكو البرد والوحدة ويرفع رأسه الى خالقه ويصف العالم وصفا طويلا أليما كما تراه عيناه ، كان كمغن مدرب ذى صوت جهورى منوع الطبقات. وكان رجال الدورية الستة يروحون ويغدون خلال الشوارع ويسمعون غناء ذلك الكلب وقال أحد الجنود الملثمين « يبدو ان حالته تزداد سوءا ليلة بعد أخرى ، أعتقد انه يجب أن نرميه بالرصاص » فأجاب آخر « ولماذا ؟ دعه يعوى ، ان صوته يروق لى ، كان عندى فى الوطن كلب يعوى دائما ، ولم أستطع أن أمنعه أبدا ، كان كلبا أصفر اللون ، أنا لا أضيق بالعواء لقد أخـذوا كلبى حين أخذوا الكلاب الأخرى » فقال الجاويش « لم يكن يمكنهم أن يتركوا الكلاب فتأكل غذاء نحن فى حاجة اليه » .

— آه ، اننى لا أشكو ، فأنا أعلم ان ما فعلوه كان ضروريا ، أنا لا أستطيع أن أرسم الطريق للقادة .. انه من الغريب ان بعض الناس هنا يحتفظون بكلابهم وليس لديهم من الغذاء قدر ما لدينا . ان الشحوب يعروهم وهم كلابا وآدميين .

فقال الجاويش « انهم أغبياء ، ولهذا هزموا بهذه السرعة انهم لا يستطيعون أن يدبروا الأمور كما ندبرها »

فقال الجندى « ترى هل سنحصل على الكلاب ثانية بعد الحرب ، أظننا سنستطيع الاتيان بها من أمريكا أو من

مكان ما ثم نبدأ فى تربيتها ثانية ، ترى أى نوع من الكلاب يعيش فى أمريكا » فقال الجاويش « لا أدرى ، لعل الكلاب هناك مجنونة ككل شىء عندهم » ثم تابع حديثه « ولعل الكلاب عديمة النفع على أى حال ، لعله يحسن بنا ألا ننشغل بها الا فى أعمال البوليس » فقال الجندى « لعل الأمر كذلك فقد سمعت أن الزعيم لا يحب الكلاب ، سمعت انها تجعله يهرش ويعطس » فقال الجاويش « انك تسمع خليطا كثيرا من الأشياء ، انصتوا » وتوقفت الدورية ، فسمعوا أزيز الطائرات آتيا من بعد شاسع . فقال الشاويش « ها قد جاءوا ، حسنا فلا ضوء هنا يبين ، لقد مر أسبوعان على آخر مرة جاءوا فيها » فقال الجندى « اثنى عشر يوما » .

وكان الحراس الواقفون بالمنجم قد سمعوا أزيز الطائرات المرتفع فقال جاويش منهم « انها تحلق علينا » ومال كابتن لوفت برأسه الى الخلف حتى يستطيع أن يرى السماء من تحت حافة قبعته وقال « أعتقد ان ارتفاعها يزيد على عشرين ألف قدم ، لعلها فى طريقها الى مكان آخر » وتسمع الجاويش وقال « ليست كثيرة العدد ، أعتقد انها أقل من ثلاثة طائرات ، هل استدعى البطارية » ؟

— بل تحقق ان كانت على أهبتها ، ثم ادع الكولونيل لانسر .. لا .. لا تدعه . ، فلعلهم لا يقصدوننا لقد كادوا يبرحون حدود البلدة ، ولم ينقضوا بعد » .

وقال الجاويش « يخيل الى انهم يدورون فى الجو ، ولا أعتقد ان السرب يزيد عن طائرتين » .

وكان الناس فى مضاجعهم يسمعون صوت الطائرات فغاصوا فى أعماق فراشهم المحشو بالريش وراحوا يتسمعون. وفى قصر العمدة أيقظ الصوت البعيد الكولونيل لانسر فاستدار على ظهره ونظر الى السقف المعتم بعينين يقظتين ، وأمسك أنفاسه ليتسمع فى جلاء ، فأخذ صدره يخفق حتى لم يعد يسمع فى نفس الوضوح الذى كان يسمع به حين كان يتنفس .

وسمع العمدة أوردن الطائرات فى منامه فأخذ يتحرك ويهمس وهو نائم .

وراحت قاذفتا القنابل تحلقان عاليا فى السماء ، لقد كانتا طائرتين فى لون الغبار ، وقد أخذتا تكتمان الأزيز منهما وتمرقان الى أعلى وتدوران .

وأخذت أشياء صغيرة تتساقط من صدر كل منهما ، مئات من الأشياء الصغيرة تتساقط واحدة بعد الأخرى ، ثم انخفضتا بضعة أقدام ، وانفتحت منهما بعض مظلات هابطة راحت تتهاوى فى بطء الى الأرض حاملة صناديق صغيرة ، ورفعت الطائرتان الأزيز وعادتا الى الارتفاع فى الهواء ، ثم كتمتا أزيزهما ودارتا ثانية وراحتا ترميان بالأشياء الصغيرة مرة أخرى ، ثم استدارت الطائرتان وعادتا سبيلهما الى الطريق الذى جاءتا منه .

وراحت المظلات الهابطة الصغيرة تطفو فى الهواء كنبات

مائى ، وقد زاد الهواء انتشارها واضطرابها فهى كالبذور اضطربت فى أوعيتها . وهبطت فى بطء هادىء ، واستقرت على الأرض فى رقة بالغة ، حتى لقد كانت بعض صناديق الديناميت الصغيرة تبلغ الأرض معتدلة فى وضعها ، وكانت المظلات الصغيرة تنكمش فى وداعة حولها . كانت الصناديق واضحة القتامة فى أماكنها على الثلج ، فقد هبطت فى الحقول البيضاء بين غابات الجبال ، ومنها ما نزل على الأشجار فتعلق بأعرافها ومنها ما نزل فوق أسقف المنازل وهبط بعضها فى الأفنية الصغيرة أمام البيوت ، أما واحد منها فقد اختار أن يهبط معتدلا على التاج الثلجى الذى يكلل هامة التمثال المقام للقديس البرت المبشر . وسقطت احدى المظلات فى الشارع تماما فوق الدورية فقال الجاويش « حذار فانها قنبلة زمنية » فقال أحد الجنود « انها ليست كبيرة الى هذا الحد » .

— على أية حال لا تقترب منها .

وأخرج الجاويش مصباحه الكهربائى وسلطه على ذلك الشىء ، فرأى ثمة مظلة لا تزيد فى حجمها عن منديل ، زرقاء مشرقة الزرقة ، معلق بها صندوق ملفوف فى ورقة زرقاء فقال الجاويش « حذار أن يلمسها أحد ، واسرع أنت فاذهب الى المنجم واستدع الكابتن ، وسنظل نحن هنا نرقب هذا الشىء اللعين » .

أشرق الفجر . وخرج الناس من بيوتهم الى البلدة فرأوا

تلك البقع المعتمة فى الجليد ، فقصدوا اليها والتقطوها وفضوا عنها أغلفتها وقرأوا الكلمات المطبوعة بالداخل فعرفوا أية هدية هبطت عليهم . فانقلب كل واحد منهم الى مهرب ، فهو يخفى الأنبوبة الطويلة التى عثر عليها تحت معطفه ويمضى الى مكان خفى يخبىء فيه أنبوبته .

وبلغت كلمة عن هـذه الهدايا مسامع الأطفال فراحوا يقلبون تلال البلدة بحثا عن بيضة كبيرة كبيض عيد الفصح ، فاذا رأى طفل محظوظ اللون الأزرق اندفع الى الهدية وأزال عنها غلافها وخبأ الأنبوبة وأخبر أبويه عنها . وقد انتاب الخوف بعض النـــاس ، فسلموا الأنابيب الى السلطات العسكرية ولكنهم كانوا قلة . وراح الجنود يقلبون البلدة مرة أخرى عن بيض عيد الفصح ولكنهم لم يجيدوا صيد هذا البيض اجادة الأطفال .

وفى غرفة الجلوس من قصر العمدة كانت مائدة الطعام ما تزال محاطة بالكراسى كما وضعت يوم أعدم الكس موردن وفقدت الغـرفة بهاءها الذى كانت تتسم به حين كان القصر ما يزال يسمى قصر العمـدة . فالفراغ العميق مخيم على الجدران العارية من كراسيها ، والمنضدة وقد بعثرت عليها بضع أوراق تجعل الغرفة تبدو وكأنها مكتب أعمال .

ودقت الساعة القابعة على المدفأة ، التاسعة ، وكان اليوم معتما مغطى بالسحاب فقد اجتلب الفجـر السحب المثقلة بالجليد .

خرجت آنى من غرفة العمدة ومالت على المنضدة تحدق فى الأوراق الملقاة عليها . ودخـل الكابتن لوفت ، ولكنه عندما رأى آنى توقف عند الباب وسألها « ماذا تفعلين هنا » فقالت آنى فى وجوم « نعم يا سيدى ؟ » .

ـ أقول ماذا تفعلين هنا ؟

ـ فكرت أن أقوم بالتنظيف يا سيدى .

ـ دعى الأشياء على حالها وامض أنت لحالك .

فقالت آنى « أمرك يا سيدى » وانتظرت حتى أخـلى طريقها من الباب وهرولت الى الخارج . واستدار الكابتن لوفت الى الباب وقال « حسنا ، احضروها الآن » وعبرجندى الباب ، وقد تعلقت بندقيته بحمائل على كتفه ، وحمل فى ذراعيه عددا من اللفافات الزرقاء تتدلى منها شرائط صغيرة وقطع من قماش أزرق .

وقال لوفت « ضعها على المنضدة » فوضع الجنـدى حمله على المنضدة بحذر » .

والآن اصعد الى الطابق الأعلى وابلغ الكولونيل لانسر اننى هنا ومعى الأشياء .

واستدار الجندى فى سرعة وغادر الغرفة ، وذهب لوفت الى المنضدة والتقط أحد الصـناديق وقد بدا على وجهه الامتعاض ورفع المظلة الهابطة الصغيرة الزرقاء الى ما فوق

رأسه ثم تركها تسقط ، ففتحت المظلة وسبح الصندوق فى الهواء حتى وصل الى الأرض . فأمسك لوفت الصندوق ثانية وراح يتفحصه .

ودخل الكولونيل لانسر الغرفة فى سرعة يتبعه الماچور هنتر . وكان هنتر يحمل فى يده رقعة من الورق الأصفر . قال لانسر « صباح الخير يا كابتن » ثم قصد الى رأس المنضدة وجلس ، وظل هنيهة ينظر الى كومة الأنابيب ثم أمسك بيده واحدة منها وقال « اجلس يا هنتر ، هل فحصت هذه الأشياء » .

وجذب هنتر كرسيا وجلس وقال وهو ينظر الى الورقة الصفراء التى يمسك بها « لم أفحصها بعناية ، فقد انكسر القضيب الحديدى فى ثلاثة مواضع على مبعدة عشرة أميال » فقال لانسر « اذن فالق نظرة عليها وقل لنا رأيك فيها » وأخذ هنتر أنبوبة وأزال عنها الغطاء الخارجى فوجد بالداخل ربطة كان الغطاء يلتف عليها ، وأخرج هنتر سكينا ، وأعمل بها فى الأنبوبة ونظر الكابتن لوفت عبر كتفى هنتر الذى راح يشم القطع الذى صنعه بسكينة ثم راح يمسح احدى يديه بالأخرى ، ويقول « هذه حماقة ، انه ديناميت تجارى ، لن أعرف الكمية التى يحويها من النتروجليسرين حتى أحلله» ثم نظر الى طرف الأنبوبة وقال « كبسولة التفجير من النوع المألوف ، مغطاة بالزئبق ، ولها فتيلة تظل مشتعلة مدة دقيقة

على ما أظن » ثم ألقى بالأنبوبة الى المنضدة وهو يقول « غاية فى الرخص والبساطة » فنظر الكولونيل الى لوفت وقال « كم تظنهم ألقوا من هذه الأشـياء » فقال لوفت « لا أدرى يا سيدى فقد التقطنا حوالى الخمسين منها ، وحوالى تسعين مظلة ، فانه لسبب ما يترك الناس المظلات حين يأخـذون الأنابيب ، واعتقد ان هنـاك كمية كبيرة لم نحصل عليها بعد » ولوح لانسر بيده وقال « ان هذا لا يجدى فى شىء ، فليسقطوا ما شاءوا ، فاننا لن نستطيع أن نمنعهم أو نستخدمها ضدهم ، انهم لم يهزموا أحـدا » فقال لوفت بوحشية « نستطيع أن نمحوهم من على وجه الأرض » وكان هنتر ينزع الكبسولة النحاسية من احـدى الأنابيب فقال لانسر « نعم نستطيع أن نفعل هذا ، هل رأيت هذا الغلاف يا هنتر » .

ـ ليس بعد ، فالوقت لم يتسع لى .

فقال الكولونيل لانسر « كأنه من عمـل الشياطين ، فالغلاف أزرق وهكذا تسهل رؤيته ، فض الغلاف الخارجى فتجد هنا .. » ثم التقط أحد الصناديق الصغيرة « تجد قطعة من الشكولاتة وهكذا سيبحث كل انسان عنها ، اننى أراهن ان جنـودنا أنفسهم يسرقون الشـكولاتة ، بل ان الأطفال سيبحثون عنها كما لو كانت بيض عيد الفصح » .

ودخل جندى ووضع رقعة ورق صفراء أمام الكولونيل

ثم انسحب خارجا . فنظر لانسر فيها ثم قهقه ضاحكا .

— هذا شيء يهمك يا هنتر ، كسران جديدان فى خطك الحديدى ؟

فرفع هنتر عينه عن الكبسولة التى كان يفحصها ثم سأل « كم أصبح التخريب شاملا ، هل ألقوا هذه الأنابيب فى كل مكان » وكان لانسر مرتبكا وهو يقول « هذا هو ما يحيرنى لقد اتصلت بالعاصمة ، ان هذه الأنابيب لم تلق الا هنا » فسأل هنتر « وكيف تفسر ذلك ؟ » .

— وكيف لى أن أعرف ، لعلهم يتخذون من هذه البلدة مكانا للتجربة ، ثم يعممون القاءها اذا أصابت هنا نجاحا ، فاذا فشلت هنا أراحوا أنفسهم .

فسأل هنتر « وماذا أنت صانع ؟ » .

— لقد أمرتنى العاصمة أن أمحق هـذا الأمر محقا لا هوادة فيه ، حتى لا تلقى هذه الأشياء فى أى مكان آخر.

فقال هنتر فى حيرة « وكيف يمكننى أن أصلح خمسة كسور فى القضبان الحديدية ليس عندى قضبان الآن تكفى خمسة كسـور فقال لانسر ، ليس أمامك الا أن ترفع بعض خطوط المخازن الجانبية لتحل محل ما كسر » فقال هنتر « ولكن مثل هـذه القضبان لن تصلح للعمـل فى الخط الرئيسى » .

— ولكنها على كل حال ستصنع خطا رئيسيا .

وألقى الماچور هنتر الأنبوبة التى حل أجزاءها على كومة الأنابيب وتدخل لوفت فى الحديث قائلا « يجب أن نمنع هذه الحوادث فى الحال يا سيدى » يجب أن نقبض على من التقط هذه الأنابيب والا ظن هؤلاء القوم اننا ضعفنا أمامهم »

وكان لانسر يبتسم اليه وهو يقول « هون عليك يا كابتن فلننظر أولا فيما أصابنا ثم نبحث عن العلاج » .

ثم أخذ صندوقا جديدا من الكومة وأزال عنه غلافه ثم أخرج قطعة الشكولاتة الصغيرة وذاقها وقال « انه من عمل الشيطان ، انها شكولاتة جيدة أيضا ، لا أستطيع أن أقاوم جودتها أنا نفسى ، انها الطعم مهيأ فى الفخ ، ما رأيك فى هذا يا هنتر ؟ » .

— ما قلته لك ، انها رخيصة ولكنها قوية الأثر فى المناوشات الصغيرة ، ديناميت ذو كبسولة وفتيل يشتعل مدة دقيقة ، انها جيدة لو عرفت كيف تستعملها ، ولا فائدة منها ان جهلت طريقة الاستعمال .

وراح لانسر يدرس الكتابة المطبوعة على داخل الغلاف وقال « هل قرأت هذا » فقال هنتر « ألقيت عليه نظرة » فقال لانسر « حسنا لقد قرأته أنا وأريدك أن تحسن الاصغاء اليه » ثم قرأ من الورقة « الى الشعوب المحتلة ! خبىء هذا .

لا تعرض نفسك للخطر . ستحتاج الى هذا فيما بعد . انها هدية من أصدقائك اليك ، وهدية منك الى غزاة بلادك . لا تحاول أن تستخدمها فى العمليات الكبيرة » ثم أخذ يعبر بعض فقرات بعينيه ويقول « ويقولون هنا : الخطوط الحديدية فى البلاد ، والعمليات الليلية ، شلوا حركة المواصلات وهنا التعليمات . الخطوط الحديدية : ضع أصبع الديناميت تحت القضبان فى مواضع اتصالها ودسها تحت مسمار واحكم وضعها بركام من التراب أو الجليد وحين تشعل الفتيل عد من ١ الى ٦٠ وبعد ذلك سينفجر » .

ثم رفع نظره الى هنتر الذى قال ببساطة « تلك هى الطريقة » وعاد لانسر الى الغلاف وراح يقرأ فقرات متناثرة « أما عن الكبارى فاضعفوا قوائمها ولا تحطموها .. وهنا يشيرون الى الأعمدة السلكية . » ثم وضع الغلاف الأزرق جانبا وقال « تلك هى تعليماتهم » فقال لوفت غاضبا « يجب أن نعمل شيئا ، لابد من وسيلة نسيطر بها على الموقف ، ماذا تقول القيادة العامة » .

فمد لانسر شفتيه ، وتلاعبت أصابعه باحدى الأنابيب وقال « كان يمكننى أن أخبرك بما قالوه قبل أن أسمعه ، ان الأوامر التى صدرت الى تقضى بأن نضع ألغاما فى صناديق مماثلة ونسمم الشكولاتة » ثم سكت لحظة وقال « اننى رجل مخلص للنظام يا هنتر ، ولكننى أحيانا حين أسمع

الأفكار النيرة التى تصدر عن القيادة العامة أتمنى لو كنت مدنيا ، مدنيا عجوزا مصابا بالكساح . فهم يعتقدون دائما انهم يواجهون شعوبا غبية .. أنا لا أقول ان هذا مقياس ذكائهم .. ما كنت لأعنى ذلك » .

فنظر هنتر اليه مرتاحا وقال « أم تراك تعنيه ؟ » فقال لانسر فى حزم « لا ، أنا لا أعنى ذلك ، ولكن أى نتيجة نجنيها من ذلك ، سيلتقط رجل أحد هذه الصناديق وينفجر به ، أو يأكل أحد الأطفال الشكولاتة التى نقدمها فيتسمم بها ، ثم .. » ونظر الى يديه فى يأس « ثم سيختبرون هذه الصناديق بالمجسات أو يتفحصونها قبل أن يلمسوها ، وسيجربون الشكولاتة فى القطط ، يا للعنة ، انها شعوب ذكية يا ماچور وما كانت الشراك الساذجة لتصيبهم مرتين » .

وجلا لوفت صوته قائلا « هذا كلام المتخاذلين يا سيدى لابد أن تعمل شيئا وكيف تفسر عدم القاء الصناديق الا فى هذه البلدة » فقال لانسر « لسبب من سببين اما أن هذه البلدة قد اختيرت بالمصادفة ، أو أن هناك اتصالات بين هذه البلدة والخارج . فنحن نعرف ان بعض الشباب قد هربوا » فأعاد لوفت قوله فى غباء « يجب أن نعمل شيئا يا سيدى » .

واستدار لانسر اليه وقال « اننى سأرشحك للقيادة العامة يا لوفت ، فأنت تريد أن تعمل قبل أن تتبين حقيقة المشكلة ، اننا نواجه نوعا جديدا من الغزو ، فقد كان الشأن

قبل ذلك أن تنزع عن الناس سلاحهم وتبقى عليهم جهلهم ، أما اليوم فهم يسمعون الاذاعات ولا نستطيع أن نمنعهم ، بل اننا حتى لا نستطيع أن نجد أجهزة الاذاعة » .

ونظر جندى من الباب الخارجى وقال « المستر كوريل يريد أن يراك يا سيدى » فأجاب لانسر « سله أن ينتظر » ثم تابع حديثه الى لوفت « انهم يقرأون المنشورات وتسقط اليهم الأسلحة من السماء ، وانه الديناميت فى هـذه المرة يا كابتن ، وقريبا قد تأتى القنابل اليدوية ثم السموم » .

فقال لوفت فى اضطراب « انهم لم يسقطوا السموم بعـد » .

— ليس بعد ولكنهم سيسقطونها ، هل تستطيع أن تدرك ما سيحدث لروح رجالنا المعنوية ، أو حتى لك أنت ، اذا حصل الشعب على بعض السهام المسممة الأطراف ، تلك الأشياء الصغيرة التى نلهو بها ونقذفها الى هدف معلق ، انها أدوات قتل صامتة صغيرة لا يمكنك أن تتبين صوتها وهى تهـدف اليك ، فتخترق حلتك الرسمية دون ضـجة تحدثها . وماذا لو عرف رجالنا ان السم يحيط بهم ، أكانوا أو كنتم أنتم تأكلون أو تشربون فى اطمئنان » .

فقال هنتر بجفاء « أتعد عن العدو حملته يا كولونيل » ؟

— لا وانما أحاول أن أتنبأ بها .

فقال لوفت « اننا نجلس هنا ونتكلم بينما كان يحسن بنا أن نبحث عن هذا الديناميت ، ان كانت هناك منظمات بين هذا الشعب فان علينا أن نستكشفها ونمحقها محقا » .

فقـــال لانسر « نعم يجب أن نمحقها فى قســـوة على ما أعتقد ! قم أنت بجانب من العمل يا لوفت ، وادع پراكل ليقوم بجانب آخر ، كنت أرجو لو كان لدينا عدد أكبر من صغار الضباط ، لقد قتل توندر هباء ، لماذا لم يدع النساء وشأنهن ؟ » .

فقال لوفت « لا يعجبنى مسلك الملازم پراكل فى العمل يا سيدى » .

— وماذا يعمل ؟

— انه لا يعمل شيئا على الاطلاق الا التخبط فى كآبة لا تزايله .

فقال لانسر « نعم أعلم ، انه أمر طالما تحدثت عنه ، ربما كنت وصلت الى رتبة اللواء ان أنا لم أتحدث فى ذلك الأمر بهذا الالحاح ، لقد أعددنا شبابنا للنصر ولابد أن نعترف انهم أفذاذ عنـــد النصر ، ولكنهم لا يعرفون أبـــدا كيف يتصرفون عند الهزيمة ، لقد علمناهم انهم أذكى وأشـــجع من الآخرين ، فكانت صدمة لهم حين وجدوا انهم ليسوا أذكى ولا أشجع من غيرهم على الاطلاق » فقال لوفت فى عنف « ماذا تعنى بالهزيمة ، اننا لم نهزم » .

فرفع لانسر نظره اليه فى برود وظل محدقا فيه فترة طويلة دون أن يتكلم حتى ارتعشت أجفان لوفت أخيرا وقال « سيدى » فقال لانسر « شكرا » .

— انك لا تطالب الآخرين بالاعتذار يا سيدى .

— انهم لا يقصدون الى الاهانة فهم فى غير حاجة الى الاعتذار ، اذا لم تحكم لسانك . فأنت تقصد الاهانة ؟

— الرأى لك يا سيدى !

— امض الآن وحاول أن تمسك بزمام پراكل ، ابدأ فى التفتيش ، ولا أريد أى قتل الا اذا تهوروا .. أتفهم ما أقول ؟

فقال لوفت « نعم يا سيدى » ثم حيا بطريقة رسمية وغادر الغرفة .

ونظر هنتر الى الكولونيل لانسر بارتياح وقال « ألم تكن قاسيا عليه ! » .

— كان لابد لى من ذلك ، انه خائف ، انى أعرف نوعه من الناس ، لابد لأحد أن يمسك بزمامه حين يخاف والا انهار قوامه ، انه يحتاج الى النظام حين يحتاج الآخرون الى العطف ، اعتقد انه يحسن بك أن تقوم الى قضبانك ، عليك أن تعلم ان الليلة فرصتهم المناسبة لتفجير هذه القضبان .

ووقف هنتر وقال « نعم ، أعتقد ان أوامر جديدة وصلت من العاصمة » .

— نعم .

— أهى تتحدث عن ..

فقاطعه لانسر قائلا « أنت تعرف ما تتحدث عنه ، أنت تعرف عم يمكن أن تتحدث .. اقبضوا على المتزعمين .. اقتلوا المتزعمين .. اقبضوا على رهائن .. اقتلوا الرهائن .. اقبضوا على عدد أكبر من الرهائن .. اقتلوهم » وكان صوته قد ارتفع ولكنه الآن خفت الى الهمس وهو يقول « وتنمو الكراهية ، وتزداد الخسائر جسامة على الأيام » .

وتردد هنتر قبل أن يقول « هل أدانوا أحدا من قائمة الأسماء ؟ » وأشار بخفة تجاه غرفة نوم العمدة ، فهز لانسر رأسه قائلا « لا ، ليس بعد ، كل ما هناك انهم مقبوض عليهم » فقال هنتر بهدوء « أتريدنى أن أوصى يا كولونيل .. لعلك مجهد يا كولونيل .. هل أستطيع أن .. أنت تعرف .. هل أستطيع أن أرسل تقريرا بأنك فى حالة اعياء »

وغطى لانسر عينيه بيده لحظة ثم انتصب قائما ، وتصلب وجهه وقال « لست مدنيا يا هنتر ، اننا نعانى نقصا فى الضباط اذهب الى عملك يا ماچور ، على الآن أن أرى كوريل » .

فابتسم هنتر وذهب الى الباب وفتحه وقال من خارج

الباب « نعم انه هنا » التفت برأسه الى لانسر وقال « انه پراكل يريد أن يراك » فقال لانسر « دعه يدخل » .

ودخل پراكل متجهم الوجه وقال « يا كولونيل لانسر ، يا سيدى ، أريد أن .. » فقال لانسر « اجلس .. اجلس واسترح لحظة ، كن جنديا حقا » ..

وسرعان ما انقشع التجهم عن پراكل ، فجلس بجانب المنضدة وأراح مرفقه عليها وقال « أريد .. » فقال لانسر « ابق لحظة صامتا ، أنا أعرف ما بك ، انك لم تعتقد ان الأمور ستجرى على هذا النحو ، لقد ظننت انها ستجرى فى صفاء » فقال پراكل « انهم يمقتوننا ، يمقتوننا أشد المقت» فابتسم لانسر قائلا « أترای أعرف ما بك » ، يحتاج الشباب الى زمن طويل ليصبحوا جنودا صالحين ، والشباب يحتاج الى فتيات أليست هذه مشكلتك » ؟

— نعم ، انها هى !

فقال لانسر باشفاق « حسنا أتراها تبغضك ؟ » فنظر اليه پراكل فى دهشة قائلا « لا أدرى يا سيدى ، أعتقد أحيانا انها تمتنع على » .

— وهل تشقى بهذا ؟

— لا أريد البقاء هنا يا سيدى .

— هذا واضح ، لقد حسبت الأمر هزلا .. أليس كذلك

لقد انهار الملازم توندر فخرج فأصابوه بسكين ، أستطيع أن أعيدك الى الوطن ، أتريد أن تعود الى الوطن مع علمك بأننا نحتاجك هنا .

فقال پراكل فى حرج « لا يا سيدى » .

— حسنا ، والآن سألقى اليك بحديث أرجو أن تفهمه ، أنت لم تعد رجلا ، انك جندى ، ان راحتك لا أهمية لهـا ، بل ان حياتك ليست بذات أهمية كبيرة يا أيها الملازم ، فان حييت تجمعت لك ذكريات ، ولعل هذه الذكريات هى كل ما ستناله . أما الآن فان عليك أن تتلقى الأوامر فتنفذها ، ستكون أغلب هذه الأوامر غير سارة ولكن ليس هذا من شأنك ، لن أكذبك أيها الملازم ، كان لابد أن يعدوك لهذا لا للطرقات المفروشة بالأزهار ، كان يجب أن يبنوا روحك على الحقائق ، ولا يخادعوها بالأكاذيب .

وأصبح صوته قاسيا وهو يقول « لقد قبلت العمل أيها الملازم فهل أنت مبق عليه أم انك تاركه ؟ اننا لا نستطيع أن نرعى روحك » .

ووقف پراكل قائلا « شكرا يا سيدى » .

فتابع لانسر حديثه قائلا « والفتاة أيها الملازم .. الفتاة ، تستطيع أن تنالها عنوة أو ترعاها أو تتزوجها فان شيئا من هذا لا يهمنا ما دمت سترميها بالرصاص اذا صدرت اليك الأوامر بهذا » .

فقال پراكل فى اجهاد « نعم يا سيدى ، شكرا يا سيدى »

— اننى أؤكد لك انه يحسن بك أن تعرف هذه الأمور ، اننى أؤكد لك هذا ، خير لك أن تعرف أيها الملازم ، اذهب الآن واذا كان كوريل ما زال منتظرا فارسله الى .

ثم راح يرقب الملازم پراكل وهو خارج من الباب .

ودخل كوريل وقد وضعت ذراعه اليسرى فى جبائر، وبدا على كوريل عند دخوله انه أصبح رجلا آخر ، لم يعد ذلك المبتهج ، الودود ، الدائم الابتسام . فقد اكتسى وجهه حدة ومرارة ، وخبا بريق عينيه فأصبحتا كعينى خنزير صغيرتين جامدتين : قال « كان يجب أن آتى قبل الآن ياكولونيل ، ولكن عدم رغبتك فى التعاون معى جعلنى أتردد » .

فقال لانسر « انك — على ما أذكر — تنتظر هنا ردا على تقريرك الذى أرسلته » .

— كنت أنتظر أمورا أكثر من هذا ، لقد رفضت أن تولينى وظيفة ذات سلطة ، وقلت اذاك اننى لم أعد ذا نفع ، ولم تتبين اننى كنت فى هذه البلدة قبل مجيئكم بزمن طويل ، ولكنك تركت العمدة فى منصبه مخالفا بذلك نصحى .

فقال لانسر « لو لم يكن العمدة فى منصبه للقينا من الفوضى أكثر مما لقينا » فقال كوريل « هذا حكم يختلف فيه الرأى ، فان هذا العمدة هو قائد الثوار فى الشعب » .

فقال لانسر « هراء ، ما هو الا رجل ساذج » .

وأخرج كوريل بذراعه السليمة مفكرة سوداء من جيبه الأيمن ، ثم فتحها بأصابعه وقال « لقد نسيت ياكولونيل ان لى مصادر أنبائى ، فقد كنت هنا قبل مجيئك بزمن طويل واننى أقرر هنا ان العمدة أوردن كان على صلة دائمة بكل حدث وقع فى هذه البلدة . فى الليلة التى قتل فيها الملازم توندر كان العمدة فى البيت الذى ارتكبت فيه الجريمة . وحين هربت الفتاة الى التلال أقامت مع أحد أقارب العمدة ، وقد تتبعت آثارها هنـــاك ولكنها كانت قد اختفت . كل هروب قام به الفتيان كان أوردن على علم به وكان يساعد عليه . واننى أرجح ان له اصبعا خفيا وراء هـــذه المظلات الهابطة الصغيرة » .

فقال لانسر فى لهفة « ولكنك لا تملك اثباتا » .

فقال كوريل « لا ، أنا لا أملك اثباتا ، انى أعرف الأشياء التى ذكرتها فى أول حديثى أما ما ذكرته فى آخره فهو مجرد شك . لعل بك رغبة الآن أن تستمع الى ؟ » .

فقال لانسر بهدوء « ماذا تقترح ؟ » .

— ان اقتراحاتى يا كولونيل أقوى من مجرد اقتراحات . يجب أن تجعل من أوردن رهينة الآن ، فتتعلق حياته بالسلام فى هذه البلاد . يجب أن تتعلق حياته باشتعال فتيلة واحدة فى اصبع واحد من أصابع الديناميت .

ووضع يده فى جيبه ثانية وأخرج كتابا صغيرا مطويا وفتحه ووضعه أمام الكولونيل وقال « هذا يا سيدى هو الجواب الذى جاءنى من القيادة العامة ردا على تقريرى . ستلاحظ انه يمنحنى بعض السلطات » .

ونظر لانسر الى الكتاب الصغير وتكلم فى هدوء « انك فعلا قد تخطيت سلطاتى ، أليس كذلك ؟ » ثم رفع بصره اليه بعينين فيهما كره صريح وقال « سمعت انك أصبت ، كيف كان ذلك ؟ »

فقال كوريل « آه ، ليلة قتل ملازمك قطع علىّ الطريق ، وأنقذتنى الدورية . بعض رجال البلدة هربوا بقاربى فى تلك الليلة . والآن ياكولونيل ، هل لابد لى أن أؤكد اصرارى على أن العمدة أوردن يجب أن يؤخذ كرهينة » .

فقال لانسر « انه هنا ولم يهرب ، كيف نجعل منه رهينة أكثر مما هو ؟ » .

وفجأة سمع صوت انفجار آتيا من بعيد ، فنظر كلا الرجلين الى الاتجاه الذى صدر عنه صوت الانفجار وقال كوريل « ألم أقل لك ، انت تعلم تماما يا كولونيل انه اذا نجحت تجربتهم هذه فسيكون هناك ديناميت فى كل قطر محتل » .

وأعاد لانسر سؤاله بهدوء « وماذا تقترح ؟ » .

— ما قلت لا أكثر ، يجب أن يحتفظ بأوردن ضد قيام الثـورة .

— فاذا ثاروا وقتلنا أوردن ؟

— تتبعه بذلك الطبيب القمىء ، فانه وان لم يكن موظفا الا انه التالى فى السلطان على الناس .

— ولكنه بلا صفة رسمية .

— ولكنه يتمتع بثقة الناس .

— فاذا قتلناه ، ماذا يحدث بعد هذا ؟

— تملك زمام القوم ، وتخضد شوكة الثوار ، اذا قتلنا القادة ، خارت قوى الثوار .

فسأل لانسر فى سخرية « أتعتقد ذلك حقا ؟ »

— بل واثق من ذلك ؟

فهز لانسر رأسه ببطء ثم نادى الحارس ، وفتح الباب وظهر الجندى فقال لانسر « انى آمرك بالقبض على العمدة أوردن ، كما آمرك بالقبض على الدكتور وينتر ، عليك أن تضع الحراسة على أوردن ثم أحضر وينتر الى هنا فى الحال » فقال الحارس « أمرك يا سيدى » فرفع لانسر بصره الى كوريل وقال « أنت واثق أليس كذلك ؟ أرجو أن تكون مدركا كنه ما تفعل ، أرجو مخلصا أن تكون مدركا كنه ما تفعل » .

وسرعان ما انتشرت الأنباء فى البلدة الصغيرة ، كانت تنتقل همسا على أبواب المنازل وفى نظرات سريعة يتبادلها القوم محملة بالمعانى ، لقد قبض على العمدة أوردن . وسرت فى المدينة همهمة متحفزة وراح الناس يتحدثون خفية ثم يفترقون ، وكان الذين يقصدون الدكاكين لشراء الطعام ، يميلون على العمال لحظة وتتناقل كلمات بينهما .

وكان الناس يذهبون الى الحقول والغابات باحثين عن الديناميت ، وكاد الأطفال الذين يلهون فى الجليد يعثرون على الديناميت ، فالأطفال الآن لديهم تعليماتهم الخاصة هم أيضـــا ، فهم يفتحون الصـــناديق ويأكلون الشكولاتة ثم يدفنون الديناميت فى الجليد ويخبرون ذويهم عن مكانه .

وقد التقط رجل من الريف البعيد احدى الأنابيب ، وقرأ التعليمات المكتوبة عليهـــا ثم قال لنفسه « أترى ما زالت

صالحة ، ثم أوقف الأنبوبة فى الجليد وأشعل الفتيلة ، ثم جرى بعيدا عنها وعد ولكنه كان يسرع فى عده ، فوصل فى عدده الى ٦٨ ثم انفجر الديناميت فقال « انها صالحة » ثم راح يبحث فى عجلة عن أنابيب أخرى .

دخل الناس الى بيوتهم وأقفلوا الأبواب جميعهم دفعة واحدة كأنما يستجيبون لاشارة متفق عليها بينهم . فالشوارع هادئة . والجنود فى المنجم يفتشون فى دقة كل عامل ينزل الى العمل ،كانوا يفتشونه ويعيدون تفتيشه ، وكانت أعصاب الجنود ثائرة ، ومسلكهم خشنا وهم يتكلمون فى قسوة الى العمال .

وكان العمال ينظرون اليهم ببرود وتختفى وراء عيونهم فرحة متشفية .

وفى غرفة الجلوس من قصر العمدة كانت الأوراق قد أزيلت عن المنضدة ، ووقف جندى فى حراسة الباب المؤدى الى غرفة نوم العمدة أوردن ، وكانت آنى راكعة أمام رحبة المدفأة تضع قطعا صغيرة من الفحم فى النار ، ورفعت بصرها الى الحارس الواقف بباب الغرفة ثم قالت فى عنف « هيه ، ماذا أنتم فاعلون به ؟ » فلم يحر الحارس جوابا .

وفتح الباب الخارجى ، ودخل منه جندى آخر ممسكا بالدكتور وينتر من ذراعه وأقفل الجندى الباب وراء الدكتور وينتر ووقف على الباب بداخل الغرفة ، وقال الدكتور وينتر « مرحبا يا آنى ، كيف حال سعادة العمدة ؟ » وأشارت الى غرفة النوم وقالت « انه هنا فى الداخل » فقال

الدكتور وينتر « ليس مريضا ؟ » فقالت آنى « لا ، لا يبدو عليه المرض ، سأحاول أن أخبره انك هنا » وذهبت الى الحارس وتكلمت فى لهجة آمرة « اخبر سعادة العمدة ان الدكتور وينتر هنا ، أتسمعنى ؟ » .

ولم يحر الحارس جوابا ولم يأت بحركة ولكن البـاب فتح من خلفه وبدا منه العمدة الذى تجاهل الحارس وان كان قد احتك به وهو يعبره الى الغرفة ، وفكر الحارس لحظة أن يعيده الى حيث كان ، ولكنه عاد الى موقفه بجانب الباب ، وقال أوردن « شكرا يا آنى ، لا تبعدى عنا كثيرا ، فربما احتاج اليك » فقالت آنى « لا يا سيدى لن ابتعد ، هل السيدة بخير ؟ » .

— انها تصفف شعرها ، أتريدين أن تريها يا آنى ؟

فقالت آنى « نعم يا سيدى » وعبرت هى أيضا الحارس بعد أن احتكت به وذهبت الى غرفة النوم وأقفلت الباب .

وقال أوردن « أتريد شيئا يا دكتور ؟ » فابتسم وينتر فى سخرية وأشار عبر كتفه الى حارسه وقال « أعتقد اننى مقبوض على ، فقد أحضرنى صديقى هذا » فقال أوردن « أظن انه كان لابد من حدوث هذا ، ماذا تراهم فاعلين الآن ؟ » ونظر كل من الرجلين الى الآخر طويلا ، وقد أدرك كل منهما فيما كان يفكر الآخر ، ثم تكلم أوردن وكأنه يتابع حديثه « أتعلم اننى لم أكن أستطيع أن أمنع هذا لو أردت منعه » فقال وينتر « أنا أعلم ولكنهم لا يعلمون » وتابع

قوله شارحا فكرة تراوده « قوم يقدرون الوقت قدره ، وقد كاد الوقت يفوت ، ولما كانوا لا يعرفون الا زعيما واحـدا ورأسا واحدا فانه يخيل اليهم اننا جميعا مثلهم ، فهم يعلمون انه لو هوت منهم عشرة رؤوس تحطموا جميعا ، ولكننا شعب حر وعندنا من الرؤوس بقدر ما عندنا من الرجال ، وعند الحاجة يظهر القواد فينا كالبرق الخاطف » .

ووضع أوردن يده على كتف وينتر وقال « شكرا ، انى أعلم هذا ولكنى أحب أن أسمعه منك ، ان شعبنا الصغير لن تهن عزيمته » ثم تفحص وجه وينتر فى قلق ، فأعاد الطبيب اليه الطمأنينة قائلا « كلا ، لن تهن عزيمته ، بل ان عزيمته — فى الحق — ستقوى بالعون الخارجى » وخيم الصمت لحظة على الغرفة وتحرك الحارس من موقفه قليـلا ، فاحتكت بندقيته بزراره .

وقال أوردن « أستطيع أن أحادثك الآن يا دكتور ، ولعلى لن أستطيع أن أحادثك ثانية ، ان هناك أشياء مخجلة صغيرة تدور بذهنى » وكح ونظر الى الحارس المتحجر ولكن الحارس لم يبن عليه انه سمع شيئا ، وقال أوردن « كنت أفكر فى موتى ، اذا تابعوا طريقهم المألوف فلابد أن يقتلونى ثم يقتلوك » ولما لم يجب وينتر قال أوردن « أليس كذلك ؟ » فقال وينتر « نعم ، أعتقد ذلك » ثم مشى الى أحد الكراسى المذهبة ، وحين هم بالجلوس عليه لاحظ ان قماشه قد تمزق فربت الكرسى بأصابعه ، وكأن هذا سيصلح من شأنه ، ثم جلس برفق خشية أن يزيد تمزيق القماش .

وتابع أوردن الحديث « أنت تعرف انى خائف ، وقد كنت أفكر فى وسائل الهرب ، لأفلت من الموت ، لقد فكرت أن أترك الميدان ، فكرت أن أتوسل لحياتى وان جعلنى هذا أحس بالعار » .

ورفع وينتر بصره اليه وقال « ولكنك لم تفعل شيئا من ذلك ! » .

— لا ، لم أفعل .

— ولن تفعل .

وتردد أوردن ثم قال « لا ، لن أفعل ، ولكن هـذا التفكير راودنى » فقال وينتر فى رقة « وكيف لك أن تعرف ان كل انسان لم تراوده هذه الأفكار ، كيف لك أن تعلم اننى لم أفكر فى هذا أنا أيضا » فقال أوردن « انى أعجب لماذا قبضوا عليك أنت أيضا ، أعتقد انهم سيضطرون الى قتلك أنت الآخر » فقال وينتر « أعتقد ذلك » ثم أخـذ يدير ابهاميه كلا منهما حـول الأخـرى ويرقب حركتهما الدائرية .

وقال أوردن « أنت تعلم ذلك » ثم سكت لحظة وقال « أنت تعرف يا دكتور اننى رجل صغير الشأن ، وهذه بلدة صغيرة ، ولكن مهما يصغر شأن الرجل فلابد فيه من شرارة تستطيع أن تشعل حريقا . اننى خائف .. خائف غاية الخوف ، وأفكر فى كل الوسائل التى قد أستطيع بها أن أنقذ حياتى ،

وما يلبث هذا التفكير أن يزول عنى ، فأحس الآن أحيـانا بشعور من الابتهاج ، لأننى كنت أكبر وأعظم من حقيقتى ، أتعلم فيم كنت أفكر يا دكتور » ثم ابتسم وهو يتذكر وقال « أتذكر أيام المدرسة ، أتذكر درس التسامح ، أتذكر أقوال سقراط : لعل بعضهم يسأل ، ألا تخجل يا سقراط أن تختار فى حياتك طريقا كهذا فتهيأ لنفسك ميتة قبل أوانها ؟ لهذا السائل أقول ، وان جوابى لحق ، انك مخطىء فى رأيك ، فان كان فى الرجل أى قبس من خير فانه يجب ألا يدخل فى حسبانه فكرة الحياة أو الموت وانما عليه فقط أن يميز بين الخير والشر » وسكت أوردن محاولا التذكر . وجلس الدكتور وينتر منحنيا فى جمود وقال متابعا « ثم يقوم بعمله كرجل خير أو كرجل شرير . ما أظنك تجيد حفظها . لم تكن تلميذا ممتازا أبدا ، لم تجد الحفظ أبدا » .

فضحك أوردن مسرورا وقال « أتذكر ؟ » .

فقال وينتر مندمجا فى الحديث « نعم ، أذكر تماما ، كنت تنسى سطرا أو كلمة . كنا فى الامتحان النهائى ، وكنت مضطربا حتى لقد نسيت أن تدخل ذيل قميصك فى ثيابك ، وظل ذيل القميص متدليا وأنت تعجب لماذا يضحكون » .

وابتسم أوردن فى نفسه ، وذهبت يده فى خفاء الى خلفه تبحث عن ذيل قميص متدلى وقال « لقد كنت كسقراط ،

عنفت هيئة الممتحنين ، كم عنفتهم ، هببت فيهم فرأيت الدماء تصعد الى وجوههم » .

فقال وينتر « لقد كانوا يمسكون أنفاسهم ليخفوا الضحك ، كان ذيل قميصك متدليا » وضحك العمدة أوردن « كم مضى على ذلك ؟ أربعون عاما ؟ » .

— ستة وأربعون .

وتحرك حارس غرفة النوم فى هدوء الى حارس الباب الخارجى ، وأخذا يتكلمان فى خفوت من جانبى فمهما ، كطفلين يتهامسان فى المدرسة وقال أحدهما « منذ متى تقوم بالحراسة ؟ » .

— طول الليل ، لا أكاد أبقى على عينى مفتوحتين .

— وأنا أيضا ، أجاءك شىء عن زوجتك فى سفينة الأمس؟

— نعم وقد طلبت منى أبلغك تحياتها ، وقالت انها سمعت انك جرحت ، انها لاتكثر من الكتابة .

— أخبرها اننى بخير .

— طبعا ، سأخبرها حين أكتب لها .

ورفع العمدة رأسه ونظر الى السقف وراح يتمتم « أترى أستطيع التذكر ، ما هى بقية القطعة » ولقنه وينتر « والآن ، أيها القوم .. » فقال أوردن فى صوت خفيض « والآن أيها القوم يا من تدينوننى .. » .

ودخل الكولونيل لانسر بهـدوء الى الغرفة فانتصب الحارسان ، وحين سمع الكولونيل الكلمات وقف وراح يسمع .

ونظر أوردن الى السقف غارقا فى محاولة التذكر لهذه الكلمات القديمة وقال « والآن أيها القوم ، يا من تدينوننى ، كيف يتأتى لى أن أعلنكم بنبوءتى .. فأنا على شفا الموت ..وفى ساعة الموت .. يوهب الناس القدرة على التنبوء ، وأنا .. أتنبأ لكم يا من تقتلوننى .. انه بعد .. بعد موتى مباشرة .. » ووقف وينتر قائلا « بعد رحيلى .. » فنظر أوردن اليه قائلا « ماذا ؟ » فقال وينتر « ان الكلمة هى رحيلى لا موتى ، لقد وقعت فى نفس الخطأ من قبل ، وقعت فى هذه الغلطة منذ ستة وأربعين عاما » .

— لا .. انها موتى .. انها موتى .

ثم نظر أوردن حوله فرأى الكولونيل لانسر وهو يرمقه فسأله « أليست موتى » فقال الكولونيل لانسر « رحيلى .. انها ، بعد رحيلى مباشرة » وقال الدكتور وينتر فى اصرار « أترى .. اننا اثنان أمام واحد ، ان الكلمة هى رحيلى ، انها نفس الغلطة التى وقعت فيها من قبل » .

فنظر أوردن أمامه ، وقد سرحت عيناه فى ذكرياته فلا يرى غيرها ثم استطرد « أتنبأ لكم يا من تقتلوننى أنه بعد رحيلى

مباشرة ، سيحل بكم عقاب أعظم عنفا مما أوقعتم بى وانى واثق من ذلك » .

وأومأ وينتر مشجعا ، وأومأ كولونيل لانسر أيضا ، وبدا عليهما انهما يحاولان معاونته على التذكر ، واستطرد أوردن « أما أنا فقد قتلتمونى لأنكم تريدون النجاة من أعدائكم فلا تقدموا حسابا عن حياتكم » .

ودخل الملازم پراكل صائحا فى اضطراب « يا كولونيل لانسر .. » فقال الكولونيل لانسر « صه .. » ثم مد يده فى وجهه ليسكته واستطرد أوردن فى صوت خفيض « ولكن الأمور لن تجرى الى ما ظننتم ، بل على العكس » وارتفع صوته قويا « فأنا أقول ان أعداءكم سيزداد عددهم عما هم اليوم » ثم أشار بيده اشارة خطابية خفيفة واستطرد « أعداء كنت أمنعهم عنكم حتى اليوم ، ولما كانوا أصغر منى سنا ، فسيكونون أكثر تهورا عليكم ، وستكونون أكثر تألما من أفاعيلهم » ثم قطب جبينه محاولا التذكر فقال الملازم پراكل « لقد قبضنا على بعض الرجال يخفون الديناميت » فقال لانسر « صه » واستطرد أوردن « اذا كنتم تعتقدون انكم بقتلكم الرجال ستمنعون الناس أن يهاجموا شروركم فأنتم واهمون » ثم قطب جبينه وفكر ونظر الى السقف وابتسم مرتبكا وقال « لا أستطيع أن أذكر غير هذا ، لقد نسيتها » فقال الدكتور وينتر « رائع منك أن تذكر هذا بعد ستة

وأربعين عاما ، فأنت لم تكن تجيد حفظها منذ ستة وأربعين عاما » فقاطع الملازم پراكل قائلا « الرجال يحملون الديناميت يا كولونيل لانسر » .

— هل قبضت عليهم ؟

— نعم يا سيدى ، الكابتن لوفت ..

فقال لانسر « ابلغ الكابتن لوفت أن يقيم عليهم الحراسة» ثم استعاد سيطرته على نفسه وتقدم فى الغرفة وقال « يجب أن تقف هذه الأمور يا أوردن » فابتسم العمدة اليه فى يأس وقال « لا يمكنهم أن يكفوا عنها يا سيدى » فقال الكولونيل لانسر فى عنف « انى قبضت عليك كرهينة أضمن بها أن يخضع الشعب ، تلك هى الأوامر الصادرة الى » فقال أوردن ببساطة « ولكنهم لن يكفوا ، أنت لا تفهم الموقف ، حين أصبح عقبة فى طريق الشعب ، سيسيرون فى طريقهم بدونى » فقال لانسر « قل لى رأيك بصراحة ماذا سيفعل الشعب اذا عرف انك ستقتل ان هم أشعلوا فتيلا آخر » فنظر العمدة الى الدكتور وينتر فى حيرة ، وفتح باب غرفة النوم وخرجت السيدة تحمل قلادة العمدة فى يدها وقالت « لقد نسيت هذه » فقال أوردن « ماذا ؟ آه .. نعم » وطأطأ رأسه فألبسته السيدة القلادة فقال « شكرا يا عزيزتى » وراحت السيدة تشكو قائلة « انك دائما تنساها ، انك لا تكف عن نسيانها أبدا » .

ونظر العمدة الى طرف القلادة الذى أمسكه بيده .. انه وسام من ذهب رسم عليه شعار وظيفته ، أعاد لانسر سؤاله « ماذا سيفعلون ؟ » فقال العمدة « لا أدرى ، أعتقد انهم سيشعلون الفتيلة » .

ـ فاذا سألتهم ألا يشعلوها ؟

فقال وينتر « يا كولونيل لقد رأيت هذا الصباح صبيا صغيرا يبنى رجلا من الجليد بينما وقف ثلاثة من جنودكم الكبار يرقبونه مخافة أن يصور رسما كاريكاتوريا لزعيمكم وما أن أصبح التمثال قريب الشبه من الزعيم حتى حطموه » وتجاهل لانسر الطبيب وأعاد سؤاله « فاذا سألتهم ألا يشعلوا الفتيلة ؟ » وبدا أوردن بعينيه المقفلتين كأنه فى غفوة ، وحاول أن يفكر وهو يقول « لست فى غاية الشجاعة يا سيدى ، أظن انهم سيشعلونها على أية حال » ثم غالب ألفاظه وهو يقول « آمل أن يشعلوها ، أما اذا سألتهم ألا يفعلوا فسيؤسفهم هذا » .

فقالت السيدة « فيم كل هذا الحديث » فقال العمدة « اسكتى لحظة يا عزيزتى » وسأل لانسر فى اصرار « ولكن أتعتقد انهم سيشعلونها » فتكلم العمدة فى زهو « نعم سيشعلونها ، ألا ترى يا سيدى ان لا خيار لى فى الموت أو الحياة ، ولكننى حر فى اختيار طريقة حياتى أو موتى ، اذا طلبت اليهم ألا يحاربوا سيأسفون ولكنهم سيحاربون .

واذا طلبت اليهم أن يحاربوا سيبتهجون ، وأنا يا من لست فى غاية الشجاعة سأزيد من شجاعتهم وان يكن قليلا ما أزيد » ثم ابتسم فى سماحة « أترى انه أمر يسهل القيام به ما دامت نهايتى واحدة على الحالين » فقال لانسر « ان قلت (نعم) نستطيع أن نخبرهم انك قلت (لا) نستطيع أن نقول لهم انك استجديت حياتك » .

فقاطعه وينتر غاضبا « سيعرفون الحقيقة ، لا تستطيعون أن تمنعوا الأسرار من التسرب ، لقد طاش صواب أحدكم ذات ليلة وقال ان الذباب يغزو مصيدة الذباب ، واليوم تعرف البلدة جميعها كلماته هذه ، لقد جعلوا منها أغنية ، الذباب يغزو مصيدة الذباب ، انكم لا تتحكمون فى الأسرار أيها الكولونيل » .

ودوت صفارة حادة من ناحية المنجم ، وهبت زوبعة سريعة من الريح فضربت النوافذ بما تحمله من ذرات الجليد.

وداعب أوردن وسامه الذهبى وقال فى هدوء « أترى يا سيدى ، لا يطيق أحد أن يقف أمامهم ، ستحل بكم الهزيمة وتطردون عن البلاد » وأصبح صوته رقيقا وهو يقول « ان الشعب لا يحب أن يغزى يا سيدى ، وهكذا لن يبقى على الغازى ، ان أحرار الرجال لا يبدأون حربا ، ولكنها حين تبدأ فسيواصلون الجهاد وان أحاطت بهم الهزيمة . ان القطعان من الناس الذين يتبعون زعيما ، لا يقدرون على هذا ، وهكذا تجد القطعان دائما هى من تكسب المعارك ،

والأحرار دائما هم من يكسبون الحروب. ستتبين ان الحقيقة هى ما أقول يا سيدى . »

وكان لانسر جامدا فظا وهو يقول « ان الأوامر الصادرة الى صريحة ، الساعة الحادية عشرة هى الحد الفاصل ، لقد قبضت على الرهائن فاذا لم تنقطع أعمال العنف فستعدم الرهائن » .

فقال الدكتور وينتر للكولونيل « أتنفذ أوامر أنت تعلم ألا فائدة ترجى منها ؟ » وتقلص وجه لانسر « سأنفذ الأوامر الصادرة الى مهما تكن ، ولكننى أعتقد يا سيدى ان اعلانا منكما قد ينقذ أرواحا كثيرة » وتدخلت السيدة فى الحديث « بودى لو عرفت فيم كل هذه السخافات » .

— انها سخافات يا عزيزتى ؟

فراحت تشرح له « ولكنهم لا يستطيعون أن يقبضوا على العمدة » فابتسم أوردن لها وقال « لا ، انهم لا يستطيعون أن يقبضوا على العمدة . ان العمدة فكرة يدركها الأحرار من الرجال وهى تتأبى على القبض »

وسمع صوت انفجار آتيا من بعيد فتردد صداه فى التلال والبلدة ، وأطلقت الصفارة فى المنجم صفيرا منذرا حادا ووقف أوردن هنيهة فى تجهم شديد ثم ابتسم وانطلق صوت انفجار آخر ، أكثر قربا فى هذه المرة وأشد وقعا وتردد صداه من الجبال فنظر أوردن فى ساعته ثم خلع ساعته وسلسلتها ووضعها فى يد الدكتور وينتر ثم سأل

«ماذا يقولون عن الذباب» فقال وينتر «غزى الذباب مصيدة الذباب» ونادى أوردن آنى «وانفتح باب غرفة النوم فى الحال وقال «أكنت تسمعين ؟» واضطربت وهى تقول «نعم يا سيدى» .

وانطلق انفجار آخر قريب من مكانهم ، ثم سمع صوت خشب يتحطم وزجاج يتهشم واندفع الباب منفتحا خلف الحراس ، وقال أوردن «آنى ، أريد أن تبقى مع السيدة طالما احتاجت اليك ، لا تتركيها وحدها» وأحاط السيدة بذراعه وقبلها فى جبينها ثم خطا ببطء تجاه الباب حيث كان يقف الملازم پراكل ، وعند الباب الخارجى استدار الى الدكتور وينتر وقال فى رقة «يا كريتو اننى مدين لاسكليبس :: أتراك ستذكر أداء الدين» وأقفل وينتر عينيه هنيهة قبل أن يجيب «ان الدين سوف يؤدى» فضحك أوردن عندئذ قائلا «أما هذه القطعة فانى أذكرها ، أما هذه فلم أنسها» ووضع يده على ذراع پراكل فانتفض منه الملازم .

وأومأ وينتر ببطء «نعم انك تذكرها ، ان الدين سوف يؤدى» .

library4arab.com

library4arab.com

هذا الكتاب

قصة الكفاح [illegible] الشعب الهزيم يقاوم غزاته ويأبى الا الحرية و[illegible] يحاول الغزاة أن يخمدوا الوطنية فى الشعب [illegible] احتلوه ويبذلون فى سبيل هذه المحاولة الوعد عذبا [illegible] الوعيد مذعرا مخيفا .

ولكن الشعب يجعل الحرية أمام ناظريه هدفا فهو مخترق اليها كل وعد ووعيد . وقد تسيل الدماء ويتفرق الشمل من الأسرات وتمنع أسباب الحياة عن أفراد الشعب ولكن هى الحرية ... وان الشعب اليها مندفع مهما تتكاثر أمامه العوائق ، هذا هو الكتاب بين يديك .

كتاب لا بد أن يقرأ

مطبعة مصر شركة مساهمة مصرية

library4arab.com